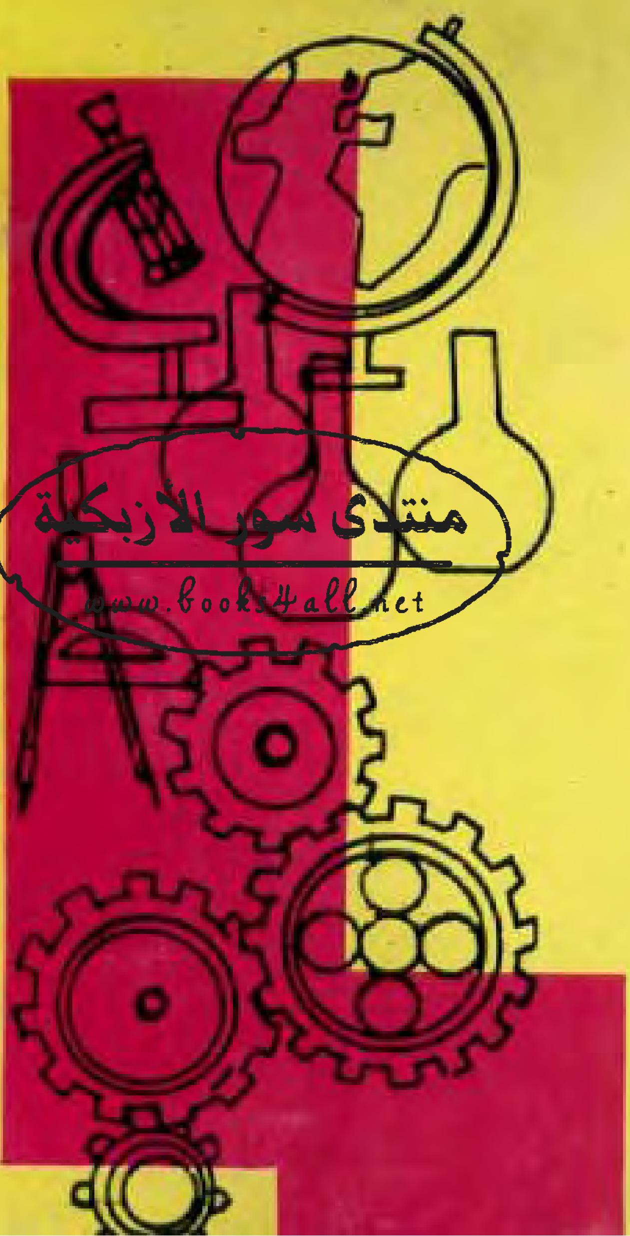
سلسلة العلم والحياة
١٤٤



مدينة الفسطاط و عبقرية المكان



د. أحمد محمد عوف

الهيئة المصرية العامة للكتاب

سلسلة العلم والحياة (١٤٤)

مدينة الفسطاط
و
عبقرية المكان

د. أحمد محمد عوف

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٣

الاشـــراف الفنى :

محمود الجزار

سلسلة العلم و الحياة

١٤٤

هـــذا الكتـــاب

هذا الكتاب ليس تاريخا لمدينة القاهرة الخالدة بقدر ما هو تصـوير لرحـلة هذه المدينة خـلال ١٤ قرنا قطعتها من عمر الزمان عندما أقام عمرو بن العاص مدينة الفسـطاط أول مدينة اسـلامية فى أفريقيا . ويضم الـكتاب قصـة أربع مدن هى الفسـطاط والعسـكر والقطائع والقاهرة المعزية ، وهذه المدن الأربع اندمجت معا وكونت عبر العصـور القاهرة الكبرى كما كان يطلق عليها فى العصـور الوسـطى حتى القرن ١٨ . وهذه المدن لم تخضـع للتخطيط المنظم بل زحفت وتوسـعت عشوائيا . وهذه المدن الأربعة كانت فى الأصـل معسـكرات وثكنات لجنود الحاميات . ومع الزمن أصـبح كل معسـكر مدينة . واتصـلت كل مدينة بجاراتها اتصـالا جغرافيا ممتدا فيما حولها . وكل مدينة عند انشـائها كانت عاصـمة لمصر الاسـلامية • فالقـاهرة الكبرى مدينة بنيت فى أحضـان الاسـلام وتعتبر متحفا أثريا للعمارة الاسـلامية وتطورها عبر العصـور ، فقد عاصـرت تاريخ مصر منذ الفتح وحتى اليوم . لهذا تعتبر القاهرة المعاصرة عاصمة العواصـم .

والكتاب عرض لمسـيرة هذه العاصـمة المركبة وقد كتب بأسلوب السـرد التاريخى لتكوين صـورة تاريخية لهذه المدينة الخالدة منذ القرن السـابع وحتى هذا القرن •

ومدينة الفسطاط أو الخيمة كما كان يطلق عليها فى عصر الفتح ، كان يطلق عليها منذ انشائها مدينة مصر وظل هذا الاسم متداولا حتى هذا اليوم عوضا عن اسم القاهرة . وهذا الاسم أكثر شيوعا حتى الآن . فالقاهرة مهما اتسعت فقد قامت فى أكناف مصر العتيقة ، ومهما اختلفت الأسماء فالفسطاط هى أم القاهرة وما عداها توابع لها .

(مدينة الفسطاط وعبقرية المكان) .. كتاب رابع لثلاثة كتب كتبت عن الأزهر فى ألف عام ومصر فى ظلال الاسلام وأحوال مصر من عصر الى عصر .. وهذه كتب نشرت فى حينها ولم يبق سوى رباعية القاهرة لتكملة الرباعية التاريخية عن تاريخ مصر الاسلامية .

ولكتابة هذه الرباعية القاهرية مناسبة تاريخية وهى مرور ١٤٠٠ سنة على انشاء مدينة الفسطاط عام ٢١ هـ . لهذا الكتاب تناول صورا لم ترد فى الكتب الثلاثة . وهذا ما يجعل له أهمية وسمة مميزة من خلال تفرد الرباعية بمساحة غطت النواحى السياسية والاجتماعية والعمرانية والاقتصادية من خلال سرد تاريخ قد نسيناه أو تناسيناه . لهذا ما جاء بهذا الكتاب تذكرة للمصريين بمصر المحروسة .

والله الموفق ،،،

المؤلف

اهـــــداء

الى القاهرة أم الدنيا وعاصـــمة العواصم ومقبرة الغزاة .
من طالها قصـــمته ومن حكمها بالعدل رفعته ومن اذلها هانته .
فاليها اهدى هذا الكتاب ليكون ملحمة شـــعب اظلته بحنوها طوال
مسيرة سلختها من عمر الزمن بلغت ١٤ قرنا . وهذا يكفيها .

د . احمد عوف

(١)

قصـــة الفتـــح

بعد الفتح الاســـلامى للشـــام قدم عمر بن الخطـاب الى الجابية قرب دمشـــق . واختلى به عمرو بن العاص أحد قواد الفتح . فقال للخليفة : يا أمير المؤمنين ائذن لى بالســـير الى مصـــر ، فانك ان فتحتها كانت قوة للمســـلمين وعونا لهم وهذه أكثر الأرضـــين أموالا وأعجـــزها عن الحـــرب والقتال . وكان عمرو بن العاص أيام الجـــاهلية قد زارها عـــدة مـــرات وزار الاســـكندرية لهذا عندما كان يتحدث عن مصـــر كان عارفا بأحوالها ودروبها . لكن الخليفة أظهر له تخوفه على المســـلمين بل أبدى كرهه لهذه الفكرة . الا أن عمرو بن العاص عاود طلبـــه وظل يلح على الخليفة حتى أذن له بالفتح . وســـار عمـــرو بقواته عـــام ١٨ هـ/٦٣٩ م من قيسارية بفلسطين .

وكان شـــرط الخليفة هو ان يســـير عمرو بقواته حتى يأتيه كتاب اما بالكف عن المســـير أو مواصـــلة التقدم لمصـــر ، وقال عمر : وان دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض لوجهك واســـتعن بالله واســـتنصره . وكان ابن العاص فى ســـباق ليصـــل حدود مصـــر قبل أن يأتيه كتاب الخليفة ، الا أن الرســـول لحق به

بعدما نزل رفح وكان عمرو قد راوغه حتى لا يعطيه الرسالة فاستنهض قواته الى العريش . ولما وصلها طلب رسول الخليفة . فسأل عمرو هل العريش من مصر ! فأخبر أنها بلدة مصرية . فطلب كتاب الخليفة . وقرأه على الجميع . وقال لهم أمير المؤمنين عهد الى ان لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع وقد دخلت أرض مصر فسيروا وأمضوا على بركة الله وعنه .

وكان الطريق مفتوحا أمام قوات الفتح التى وصلت الى حصن الفرما فى شمال شرقى الداتا . وحارب المسلمون الحامية البيزنطية لمدة شهر بعدما حاصروا الحصن . وكانت هذه أول معركة للفاتحين فوق الأراضى المصرية حيث انتصروا .

من هنا نجد أن العرب أصبحوا الآن فى مواجهة عسكرية مع البيزنطيين وكان يمثلهم قيرس (المقوقس) كوال على مصر للأمبراطور فى القسطنطينية وأسقف الاسكندرية للكنيسة الملكانية الرومية ، وهذه الفترة بالذات نجدها غامضة فى كتب المؤرخين العرب لأنهم أخذوا عن المؤرخين البيزنطيين الذين كانت كتاباتهم بالاغريقية وتتسم بالتعصب ضد الاسلام . فكان ما كتبوه عن عصر الفتح الاسلامى لمصر فيه تحيز . الا أن انتصار المسلمين وفتحهم لحصن نابليون يعتبران انتصارا محوريا لهم ولا مرية فيه . وقصة فتح الحصن سوف تعرض من خلال ما كتبه (بتلر) فى مجلده (فتح العرب لمصر) وما كتبه ستانلى بول فى كتابه (تاريخ مصر فى العصور الوسطى) وهما مستشرقان ضليعان فى التاريخ الاسلامى .

وكان خطأ قيرس فى مواجهته لقوات الفتح أنه لم يقدر الموقف العسكرى . لأنه كان على بينة بأن العرب قادمون لفتح مصر .

ولاسيما بعد انتصاراتهم المذهلة فى الشام وفلسطين على البيزنطيين • ومن الطبيعى أنهم سيأتون برا من الشرق • وكان عليه حشد القوات البيزنطية فى طريق الفتح الا أنه لم يفعل هذا فترك غزة ورفح والعريش بلا قوات واكتفى بحصن الفرما الذى كان مفتاح أى غزو لمصر من جهة الشرق . وكان لسقوطه فى أيدى الفاتحين قد جعل الطريق خلفه مفتوحا حتى المدينة المنورة عاصمة الخلافة . مما يسهل ارسال القوات لنجدة هؤلاء الفاتحين وكان عدد قوات ابن العاص أقل عددا وعدة من قوات البيزنطيين فى حصن الفرما وشرق الدلتا . ومما قوى عمرو انضمام البدو الى قواته وهو فى طريق الفتح للجبهة الشرقية . وهؤلاء البدو هم عرب رحبوا بأخوانهم عرب الجزيره العربية . وقد قدموا كل العون لهم .

واتجه عمرو متوغلا فى الصحراء الشرقية الى الصالحيه ثم بلغ التل الكبير حتى وصل لبلبيس . ودار هناك قتال استمر شهرا انتصر فيه المسلمون • ثم اتجهوا الى هليوبوليس (عين شمس) بعد ذلك .

وفى هليوبوليس قسم عمرو بن العاص قواته الى ثلاث فرق حيث وضع فرقة بالشمال من حصن بابليون الذى فى مصر القديمة حاليا . والفرقة الثانية جعلها فى تندونياس (أم دنين) بالازبكية حاليا . والفرقة الثالثة جعلها فى هليوبوليس (عين شمس) . وكان الهدف من توزيع هذه القوات الثلاث فى هذه المواقع قد حدد ما يفكر فيه عمرو بن العاص • فلقد كانت خطته اخراج البيزنطيين من حصونهم ولاسيما وأنه ركز مجهوده الرئيسى للهجوم على هليوبوليس فجعل قوات حصن بابليون تخرج للدفاع . فأطبقت قوات عمرو عليها . مما جعل البيزنطيين يفرون

الى النيل ويلقون بأنفسهم فيه ، واستطاعت قوات الفتح تشتيت القوات البيزنطية في تندونياس وهليوبوليس ولم تبق قوات بيزنطية سوي ما كانت بالحصن وما انضم اليها من فلول البيزنطيين المدحورين .

ومن تقييمنا لقوات الفتح والقوى البيزنطية فى مصر نجد ان القوات العربية كانت قد تمرست على الحروب فى فارس والشام أمام جيشين لامبراطورتين عاتيتين هما الفرس والروم . وهذه القوات متمرسة على القتال فيما بينهما . وهذا القتال لم ينقطع الا بعد دخول قوات المسلمين معهما فى معارك تاريخية انتصروا عليهم فيها . وكان المسلمون يحاربونهم فى جبهتين وحققوا انتصاراتهم فيها.

والقوات البيزنطية فى مصر كانت قوات حصون لاتعرف المناورة . لكنها تجيد الدفاع عن الحصن ولاسيما وأن العرب لا يعرفون هذا الأسلوب في القتال لأنهم لم يتدربوا أصلا على آلات الحصار لكنهم تدربوا على الحرب فى ساحات قتال مفتوحة يتم فيها النزال والمواجهة .

ولقد دام حصار حصن بابليون سبعة أشهر لأن طبيعة هذا الحصن الجغرافية أشبه بالحصون الساحلية .. فالحصن شرقه وشماله صحراء قاحلة . وبالشرق بالذات يطل جبل المقطم عليه وغرب الحصن يطل على النيل مباشرة وهذا يشكل مانعا مائيا كان يستغل أثناء الحصار فى عبور الامدادات لبابه الغربى . وفى الجنوب توجد بركة الحبش وهى تتكون من مستنقعات فى أغلبها . لكن العرب كانوا فى مواجهة الحصن بالصحراء وهم قد ألفوا العيش فيها . لهذا كانوا صامدين وصبورين فى حصارهم . وبعد معركة

هليوبوليس واصل عمرو سيره الى ام دنين وكانت قرية صغيرة على النيل ويصف (الفريد بتلر) هذه القرية بانها كانت مسلحة قوية وكانت تقع شمال حصن بابليون . حيث كانت القوات البيزنطية تنزل منه تباعا وتعود اليه لائذة به عندما تشتد المعارك ، وفى ام دنين رغم أن القتال لم يتعد المناوشات لعدة اسابيع الا أن القوات العربية تناقصت أعدادها ولاسيما بعد معارك حصن الفرما وهليوبوليس وأم دنين . وهذا ما جعل عمرو بن العاص يطلب قوات جديدة من الخليفة عمر . الا أن المدد العسكرى تأخر عليه .

وما كان على عمرو سوى الاستيلاء على « أم دنين » بأى ثمن ويؤجل الاستيلاء على الحصن . فاتجه بقواته الى الفيوم بعد اجتيازه للنيل فى المراكب . وكان هدف عمرو من هذه العملية شغل قواته حتى لا يتقاعسوا عن القتال فيما بعد . واجتاز عمرو بقواته النيل بدهاء لأنه كان على بينة بخطورة هذا العبور للضفة الغربية . واتجه الى الجنوب مستوليا على كل ما كان يقابل قواته الى أن وصل لمشارف الفيوم ولم يدخلها لأنه كان يهدف الى تضييع الوقت حتى تصله الامدادات من المدينة المنورة . ولما علم بوصولها الى هليوبوليس عاد من حيث أتى واستطاع بقواته العبور الى الضفة الشرقية وعلى عجل ولاسيما بعدما استرد البيزنطيون أم دنين الا انهم عجزوا عن منع التقاء عمرو بالقوات الجديدة لأنه انضم اليهم .

ويعتبر عبور عمرو فى النيل والعدو فى انتظاره بالضفة الشرقية معجزة فعلا وقد ساعده المصريون فى هذا العبور مساعدة فعالة ولاسيما وأن تيودور كان قائد حامية الفيوم البيزنطية قد سبق عمرا فى انسحابه ووصل الى حصن

بابليون ليقويه ويحصنه . وكان تيودور لديه السفن الرابضة بحذاء النيل غرب الحصن . والنيل كان فى التحاريق ولم يفض بعد . مما يعطى لسفن البيزنطيين حرية الحركة والمناورة لتوجيه ضربتها ولاسيما وأن القوات الاسلامية كانت فوق المراكب بعتادها وخيولها والبيزنطيون على البر . لكن الحق يقال أن المصريين ساعدوا هذه القوات على العبور وموهوا على البيزنطيين لأنهم شعروا أن قوات الفتح أكثر عدلا ورحمة بهم من هؤلاء البغاة الذين يستعمرونهم . فقد لاحظوا أن المسلمين رحماء فيما بينهم ورحماء بهم عندما فتحوا جنوب الجيزة حتى الفيوم. فلما توغلت القوات العربية بمصر الوسطى اكتشفوا افك البيزنطيين حولهم . فلقد رأوهم عادلين قد سووا فيما بينهم . فهم أخوة فى الدين لا فرق بينهم الا بالتقوى .

والى الآن لا يعرف كيف عبر عمرو العبورين ولاسيما العبور الثانى فهذا لم يكن يتم بأى مقاييس حربية لأن العبور كان لمانع مائى بقوات محملة فوق مراكب وليست مجتازة لمعابر أو كبارى وهذا أشبه بعبور قواتنا فى حرب أكتوبر لقناة السويس . الا أن هذين العبورين قد تما . فنابليون عندما عبر عام ١٧٩٨ نفس هذه المنطقة من امبابة الى بولاق فلقد كان عبوره عبور المنتصر والقاهرة كانت فاتحة له ذراعيها لأنها كانت خاوية ومدينة أشباح .

ونزلت قوات عمرو شمال قرية أم دنين ليكون على مقربة من قوات المدد . ولما اجتمعت كل القوات ارتفعت معنويات عمرو ابن العاص ولاسيما وأن القوات تجمعت فى عين شمس على مقربة من الماء والمؤن . وأصبحت قواته عددها ١٥ الف وكلهم من خيرة قوات الفتوحات الاسلامية . فلقد أتاه الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة الصامت ومسلمة بن مخلد .

وكانت خطة عمرو بن العاص هى نفسها خطته فى معركة هليوبوليس السابقة فلقد استدرج قوات تيودور بالحصن الى السهل بعيدا عنه . فلقد توجه القائد البيزنطى بقواته الى هليوبوليس ولم يستوعب الدرس الذى لقنه عمرو لهذه القوات من قبل لأن أرض المعركة شبه صحراوية والعرب يجيدون الكر والفر فوقها . وتم اللقاء على مقربة من العباسية (الريدانية) وأوقع عمرو أعداءه فى كمين بين ثلاثة جيوش عربية أطبقت على البيزنطيين من كل اتجاه . مما أفزعهم وجعلهم ينسحبون للحصن بعدما خسروا الكثيرين كما أن بعضهم هرعوا للسفن بالنيل واتجهوا للدلتا فارين .

بعد هذه المعركة أرسل عمرو بن العاص كتيبة لفتح الفيوم الا أنه وجه المجهود الرئيسى لفتح حصن بابليون . فاتجه فى سبتمبر ٦٤٠ م لمحاصرة الحصن .

وكان هذا الحصن قد بناه الفرس وقام البيزنطيون بتحصينه وكان يطلق عليه حصن (باب آليون) وكلمة آليون اسم مصر قديما وقصر الشمع قد اقامه الملك بختنصر الفارسى وكان عبارة عن قبة وكان يطلق عليها المصريون قبة الدخان . وهذا القصر حاليا وسط مدينة الفسطاط . والفرس لأنهم من عبدة النار كانوا يوقدون به الشمع أول كل شهر شمسى . وكان هذا اعلانا بأن الشمس انتقلت من برج لآخر ، فقصر الشمع كان يعتبر هيكلا لعبدة النار الفرس وهو أحد بيوت النار التعبدية لهم .

وكان لحصن بابليون أسواره العالية التى هدمت مع الزمن بعد الفتح الاسلامى له . وكان على شكل مربع وكان فى السور الجنوبى والشرقى أربعة أبراج بارزة منه ، وكان

السور الغربى بلا ابراج لأنه يحاذى النيل وبه باب يطل على مرسى مدرج كانت ترسو به المراكب والسفن . وبابه الرئيسى كان بين برجين بارزين بالجنوب .

والواقف فوق الحصن كان يرى الأهرامات والمقطم والجيزة ومعظم هذا الحصن قد تهدم ولم يبق منه سوى الباب الجنوبى الكبير وهو مدخل الكنيسة المعلقة الآن بمصر القديمة ويطلق عليه قصر الشمع . وكان مكان الحصن والقرية الصغيرة حوله يطلق عليها مصر .

وكان سبب تأخر قوات عمرو بن العاص فى فتح هذا الحصن أن قواته لم تكن تعرف حصار الحصون ، وفتحها ، ولأنهم لم يكن معهم معدات حصار متقدمة رغم أن الخليفة عمر قد أرسلها لهم لكنهم لم يتدربوا عليها . كما أن الحصن كانت تصله المؤن من جزيرة الروضة فوق جسر المراكب بالنيل للباب الخلفى الغربى . لهذا صمم عمرو بن العاص على الاستيلاء على جزيرة الروضة اثناء الحصار ، ولما استولت قواته عليهما هدم أسوارها وحصونها .

هذه قصة الحصن الذى كان بشرقه كنائس وأديرة لم يتعرض لها عمرو واثناء الحصار . وكان قد أرسل قيرس أسقف بابليون مع وفد لعمرو ويقول (بتلر) : فلاقيهم عمرو واكرمهم . فقالوا : أنكم قد ولجتم فى بلادنا والححتم على قتالنا وطال مقامكم فى أرضنا وانما انتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل وانما أنتم أسارى فى أيدينا فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه ة ولعلكم أن تندموا ان

كان الأمر مخالفا لطلباتكم · وهذا الكلام ما كان ينطلى على عمرو بن العاص . فالروم حشدوا للمسلمين بالشام وفلسطين وكان قائدا فى المعارك وعلى بينة بكفاءة الروم القتالية . لكن عمرا أخر هذا الوفد يومين وترك له حرية التجول بين قواته بعدهما أرسل مع الوفد ما أطلع على أحوالها رسالة جاء فيها : ليس بينى وبينكم الا احدى ثلاث خصال . اما أن دخلتم فى الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم ما لنا . وان أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، واما جاهدناكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين .

وكان عودة الوفد صدمة لقيرس الذى كان يروج أن العرب يقتلون الرسل . وقالوا له :

رأينا قوما الموت أحب الى احدهم من الحياة . والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة . ليس لاحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة . ما يعرف رفيعهم من وضيعهم . واذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحدا .

فطلب « قيرس » (المقوقس) نفرا يتفاوض معهم . فأرسل له عمرو عشرة نفرا أحدهم عبادة بن الصامت وكان أسود البشرة ، وكلفه بأن يكون المتحدث عنهم . ولا يتفق الا على أحد المبادىء الثلاثة التى بلغ بها الوفد . وتقابل الوفد مع « قيرس » (المقوقس) سرا فى جزيرة الروضة ولم يعلن لقواته عن هذا اللقاء حتى لا يخذلهم . ولما تقابل معهم قيرس رأى عبادة فقال : نحو عنى ذلك الأسود وقدموا غيره يكلمنى · فقالوا : ان هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا · ونرجع جميعا الى قوله ورأيه · فدهش قيرس الا أنه عرض على الوفد دفع الجزية للمسلمين وفك الحصار

محذرا لأن جمع الروم قادم ولا حصـــر له قائلا : وانا لنعلم أنكم لن تقدروا عليهم ولن تطيقوهم لضـــعفكم وقلتكم . ونحن تطيب أنفســنا أن نصـــالحكم على أن نفرض لكل رجل منكم دينارين ولأميركم مائة دينار وخليفتكم الف دينار فتقبضـــونها وتنصـــرفون الى بلادكم ، فرد عبادة : يا هذا لا تغرن نفســك ولا أصـــحابك . أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ما كان هذا بالذى تخوفنا به . والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشـــد لحرصـــــنا عليهم لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه .

وواصـــل عبادة فى حـــديثه عن الجهاد فى ســــبيل الله باســـتفاضـــة وأن القرآن نص على أن كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصـــابرين . وأن كل واحد منهم جاء طالبا للشـــهادة ، ولم يجيبوا لما يطلبه الا لخصـــلة من ثلاث وهى الاســـلام أو الجزية أو الحرب . فطلب منه أن يختار الاســـلام . وراوغ قيرس حتى يتنازل عن هذه الخصـــال أو يعدل عنها . فرد عبادة بعدما نفد صـــبره قائلا : لا ورب الســـماء والأرض ورب كل شىء ما لكم عندنا من خصـــلة غيرها فاختاروا لأنفسكم . واجتمع قيرس بمن كان معه وتشاوروا فى الأمر فقالوا : لن نترك دين المســـيح الى دين لا نعرفه . واذا دفعنا الجزية لم نعد ان نكون عبيدا . فقال لهم عبادة : انهم ان دفعوا الجزية كانوا آمنين على أنفســهم وأموالهم وذراريهم مســـلطين فى بلادهم على ما فى أيديهم وما يتوارثونه فيمـــا بينهم . وحفظت لهم كنائســـــهم لا يتعرض لهم أحد فى أمور دينهم .

وأمام رفض البيزنطيين لشـــروط العرب طلبوا هدنة شهرا حتى يرووا فيه رأيهم . لكن عمرا أعطاهم مهلة ثلاثة أيام . لكن هذه المقابلة شـــاعت فى الحصـــن وثار المقاتلون البيزنطيون على

قيرس (المقوقس) . وصمموا على مواصلة القتال . فخرجوا للمسلمين بعد الأيام الثلاثة وأخذوهم على غرة الا أن المسلمين هبوا الدفاع عن أنفسهم واستبسلوا فى هذه المعركة الحامية الوطيس حتى أثخنوا الروم قتلا . فتراجعوا مدحورين للحصن . وهذه الهزيمة السريعة جعلت قيرس يفكر جديا فى التسليم ولاسيما وأن المعارضين لفكرته قد لقووا درسا فوريا على أيدى الفاتحين ، ولم يعدوا متحمسين لمواصلة القتال . بل طلبوا من قيرس أن يعاود المفاوضات مع عمرو ولاسيما وأنهم محصورون داخل الحصن وقد طوقهم المسلمون به بعد استيلائهم على جزيرة الروضة وتسيدهم على النيل . فلم يعد من الممكن وصول الامدادات لهم . ولو خرجوا للعرب فهم هالكون لا محالة ولاسيما وأنهم دخلوا الحصن . فصالح قيرس عمرا على الجزية وكانت عام ٦٤٠ م وهذه أول اتفاقية بين المسلمين والبيزنطيين .

وفى هذا نجد أن عبادة قد وقع الاتفاقية مع قيرس الذى وقع عن الروم والقبط ، واشترط موافقة الامبراطور بالقسطنطينية عليها . وكان القبط كما يقول ابن ظهيرة بلا خيار . وكان من شروط الصلح أن يدفع كل من فى مصر من الروم والقبط دينارين عن كل نفس فى كل سنة من البالغين شريفهم ووضيعهم واستثنى الشيوخ والاطفال والنساء والعبيد والمقعدون والرهبان من هذه الجزية . وأن لهم أرضهم وديارهم وأموالهم لا يعترضون فى شىء منها . وقدر عدد من سيطبق عليهم دفع الجزية بستة آلاف نفس . واعتبرت مصر قد فتحت صلحا لا عنوة . بعدها سار عمرو الى الاسكندرية لمواصلة الفتح . ويقول ابن ظهيرة فى (محاسن مصر والقاهرة) بأن ابن العاص عند رحيله من الحصن أمر بفسطاطه أن يقوض ، فاذا يمامة

قد باضت في أعلاه فقال : لقد تحرمت بجوارنا . أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها . فأقروه في موضعه فسميت مصر الفسطاط . وظل في الاسكندرية ستة شهور حتى فتحها .

ووصلت اتفاقية بابليون الى الامبراطور بالقسطنطينية وهاج . ولم يدر هل هذا الصلح تقديم مال للعرب ويرحلون عن مصر أم معناه اسلام مصر وبقاء العرب بها . وطلب حضور قيرس ليحاسبه . الا أنه عزف عن مغادرة مصر لأنه فعل ما هو الأصلح ولم يخن ، الا أنه لو وصل للامبراطور فلن يقبل منه هذا مهما علل موقفه أمامه • فهو على بينة كما يقول (بتلر) : اذا كان العرب قوما لا يشبهون سائر الناس في شيء فهم لا يعبأون بأمر من أمور الدنيا ولا متاعها . ولا يطلبون منها الا لقمة يسدون بها رمقهم وشملة يسترون بها أبدانهم . فهم قوم الموت يرونه ربحا في أن الشهادة التي ينالون بها الجنة • فقال قيرس للامبراطور : لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم في القتال لعرفت أنهم قوم لا يغلبن فليس لنا من سبيل خير من الصلح مع عمرو وقبل ان يفتح حصن بابليون عنوة وتصبح البلاد غنيمة له •

لقد طال حصار المسلمين للحصن لمدة سبعة شهور ولم يأت رد الامبراطور على الاتفاقية . وكان المسلمون مازالوا يحاصرونه . ويقول اليعقوبي : بقيت ساعة الهجوم سرا ، فلما جاء وقتها أقبل الناس سراعا تحت جنح الليل ووضع الزبير سلما على السور ولم يفطن اليه أحد . فما شعروا الا والبطل العربي (الزبير بن العوام) على رأس الحصن يكبر وسيفه في يده ، وتحامل الناس اليه من داخل الحصن غير أن السهام أمطرتهم من العرب في خارجه ، واستطاع بذلك

أصحاب الزبير أن يصلوا اليه فوق السلم ويطأوا أسواره بأقدامهم . والظاهر أن الروم كانوا يتوقعون هجوم العرب من ذلك الجانب فبنوا حائطا تعترض المشى فوق السور من جانبى ذلك الموضع . فلما جاء العرب الذين صعدوا الى الحصن وأناموا من كان هناك من حرسه (كان لهجوم ليلا) وملكوا رأسه وافلوا طريقهم مسدودة يعترضها ذلك الحائط . فلم يجدوا سبيلا الى السلم ليهبطوا منه الى قلب الحصن ، ورأوا أنفسهم قد بلغوا رأس الأسوار ثم لا سبيل لهم وراء ذلك .

الا أن قائد الحامية (جورج) طلب الصلح من عمرو بن العاص وتسليم الحصن فقبله عمرو ولكن الزبير خالفه قائلا : لو صبرت قليلا لنزلت من السور الى داخل الحصن ولكان الأمر على ما تشتهى . وكتب عمرو عهد الصلح على أن يخلى فى ثلاثة أيام فنزل الجنود الى النهر يرحلون تاركين أسلحتهم وذخائرهم وكان سقوط الحصن فى ٦ ابريل ٦٤١ م .

واكتشف المسلمون عند دخولهم الحصن أن به آلاف الأقباط المسجونين والذين كانوا يعذبون بالسياط لأنهم لم يغيروا مذهبهم ولم يدخلوا فى مذهب الروم . وحرروهم من سجنهم وأمنوهم على أنفسهم . ولقد وصف هذا الأسقف القبطى انين قائلا : ان فتح الحصن للمسلمين لم يكن الا عقابا من الله على ما فعله الروم من الأفاعيل فى القبط .

(٢)

أم المـــدائن

يعتبر تاريخ القاهرة هو تاريخ مصـــر الاســـلامية منذ الفتح الاســـلامى وحتى اليوم لأن مدينة الفســـطاط هى احدى ضواحى القاهرة الكبرى وكانت أول مدينة بناها العرب فى مصـــر لهذا يطلق عليها مصـــر القديمة أو العتيقة .

وكانت عاصمة مصر من قبل دخول العرب هى الاســـكندرية منذ عصـــر البطالمة عندما بناها الاســـكندر الأكبر . لهذا تعتبر الفســـطاط أم القاهرة وأقدم عواصـــم مصـــر الاسلامية الا انها نمت وتوســـعت لتضـــم مدن العســـكر والقطائع والقاهرة وظلت الفســـطاط يطلق عليها مصـــر الى أن أحرقت فى أواخر عهد الفاطميين عندما أحرقها الوزير شـــاور وحولها الى خراب . لهذا اخذت القاهرة اســـم مصـــر منذ انشـــائها وحتى الآن وقلما كان يذكر كلمة القاهرة فى كتابات المؤرخين العرب حتى مطلع هذا القرن .

والقاهرة حاليا هى عدة مدن متباعدة العصـــور ومتباينة الحضـــارات كما يقول المؤرخ (أولج فولكف) . لأن القاهرة نشأت

كمعسكر للحاكم الفاطمى والجند . شأنها شأن نشأة الفسطاط التى كانت مقرا لعمرو بن العاص وجنوده ، والعسكر التى كانت مقرا للوالى العباسى وجنوده بعد سقوط الدولة الأموية عام ٧٥٠ م والقطائع كانت مقرا لأحمد بن طولون وعساكره . فالفسطاط بمدنها الثلاثة أصلها مدن عسكرية وكان اتساعها محكوما عليه بالاتجاه الشمالى . لأن شرق المدينة كان هضبة المقطم والجبل الأحمر وغربها كان النيل وجنوبها كان بركة الحبش وهى مستنقعات ومخاضات وكان بها أديرة وكنائس متناثرة .

وكان اختيار عمرو بن العاص لموقع « الفسطاط » ضرورة استراتيجية وقد بين ستانلى لينبول فى كتابيه (تاريخ مصر فى العصور الوسطى وقصة القاهرة) حيث قال : لم تعد الاسكندرية العاصمة رغم أنها ميناء تجارى هام الا أنها أثناء الفيضان تصبح معزولة عن بقية أقاليم مصر ويصعب الاتصال بينها وبين المدينة المنورة عاصمة الخلافة . كما أن سكنى قوات الفتح فى مدينة حضرية يفقدها القدرة على القتال . والاسكندرية لكونها كانت عاصمة ترمز الى الحكم الرومانى الذى اضطهد المسيحيين الأقباط جعلهم يكرهونها . وقد أمر الخليفة عمر عمرو بن العاص باختيار مدينة فى مكان يتوسط مصر .

ولكن عمرو بن العاص كان يحلم أن تكون عاصمة الامارة الاسلامية الاسكندرية لأنه زارها أبان الجاهلية فأعجب بها . ولم يكن يدرى أن قدره مع هذه المدينة التاريخية . وأراد سكناها بعد الفتح فأرسل رسالة للخليفة عمر قائلا : منازل قد كفيناها فلما وصلت الرسالة للخليفة سأل حاملها : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ أجابه : نعم يا أمير المؤمنين اذا جرى

النيل . لهذا أمر عمرو بن العاص باختيار مدينة لا يحول بينه وبين قوات الفتح ماء حتى يســهل نجدتهم من المدينة وتكون فى موقع ســط . لأن عمر كان لا يحب بالقوات أن تســكن المدن القائمة ويحبذ انشــاء معســكرات لجنده حتى لا يتعودوا على حياة المدن وينصــرفوا عن الجهاد . لهذا نجد الكوفة والبصــرة بالعراق أصــلهما مدنا عســكرية وكان يطلق عليها مدينة الجند . لهذا لما أقيمت الفسطاط كان يطلق عليها فسطاط الجند .

فاختار عمرو سهلا شمال حصن بابليون بشرق النيل وعلى مقربة من مدينة ممفيس (منف) العاصمة الفرعونية القدية جنوب الجيزة . وكان قد عسكر بها جنوده ابان حصار الحصن . فشرع فى اقامة مدينته التى سماها الفســطاط وجعل جامعه ودار الامارة فوق موقع الخيمة التى باضــت فيها يمامة . وظلت هذه المدينة بضــواحيها العســكر والقطائع عاصمة مصــر لمدة ثلاثة قرون حتى أحرقت أبان الغزو الصــليبى عندما دخلهــا الملك عمورى الصــليبى فى حملته على القاهرة . ومنذ انشــاء المدينة وحتى اليوم يطلق عليها مصــر أو مصر القديمه .

وتعتبر مدينة الفســطاط وجامع عمرو أول اثر اســلامى بمصــر وأفريقيا . وكانت الاســكندرية منذ بناها الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق.م عاصــمة مصــر البطلومية والرومانية والبيزنطية الى أن اســتولى عليها عمرو بن العاص . وكان الهدف من الابقاء على هذه المدينة الســاحلية لموقعها الاســتراتيجى على البحر الأبيض المتوسط . أن يســهل نجدتها من اثينا أيام الاغريق ومن روما أيام الرومان ومن القســطنطينية أيام البيزنطيين الروم .. وكان قد سكنها الاجانب ليســهل عليهم مغادرتها فى حالة اى ثورة على المدينة عن طريق البحر وهذا ما حدث عندما فتحها ابن العاص عام ٦٤١ م .

لهذا كان عمرو بن العاص بين أمرين لا ثالث لهما ، فلو اختار الاسكندرية فان وجوده بها سيكون معرضا لأى غزو من البحر يقوم به الاسطول البيزنطى الرابض وهذا ما حدث فعلا فيما بعد مما جعله يعيد فتحها عام ٦٤٦ م وقد استدعاه المصريون لنجدتهم بعدما عزله الخليفة عثمان فطلبوه منه .

والأمر الثانى أنه سيكون بعيدا عن المدينة المنورة وأثناء الفيضان سيكون معزولا بالاسكندرية ولاسيما وأن ثمة أضرابا وجيوبا مازالت كامنة ببقية أقاليم مصر وهم من البيزنطيين وبعض الأقباط الذين كانوا يعارضون الفتح الاسلامى . ولم يكن عمرو قد أخضع كل مصر لسيادته ولاسيما الصعيد والنوبة وشمال الدلتا . كما أن قرار الخليفة بعدم عزل القوات الاسلامية بموانع مائية ليسهل نجدتها فى حالة الثورة أو الحصار كان قرارا استراتيجيا لا مناص منه .

فكان اختيار عمرو بن العاص شرق النيل عند حصن بابليون قرارا واقعيا . فلقد سبق أن وصلته نجدة الخليفة بقيادة الزبير بن العوام ووصلت عين شمس . كما أن مكان الفسطاط مفتوح على الصحراء ويفضى اليها بلا أى موانع أو حواجز ولاسيما وأن الطريق يخضع بالكامل لسيادته . فالطريق يعتبر مفتوحا للمدينة المنورة من خلال اتصال أرضى لا ينقطع عبر سيناء .

واختار هذا المكان الصحراوى لتشعر قواته انها مازالت على بداوتها لهذا كان تصميمه على أن يسكن جنده هذه الصحراء حتى لا يفقدوا روحهم القبلية . وكان بعض الصحابة قد أشاروا عليه بسكنى (منف) العاصمة المصرية القديمة

ولا سيما وأنها تتوسط مصر العليا ومصر السفلى الا أنه عارضهم لأن النيل سيكون حاجزا بينه وبين الصحراء بالشرق رغم أنها ستسهل له الاتصال بين الوجهين فى الغرب من النيل .

كما كان اختيار موقع الفسطاط ضرورة حتمية اقتنع بها عمرو بن العاص ولم يغيرها حتى عندما تولى الولاية للمرة الثانية أيام معاوية وكان بيده الأمر والنهى بمصر . حتى أنه كان يعتبر ولايته حكما ذاتيا حيث لم يخضع لمعاوية الا اسميا حتى مات فى ٦ يناير عام ٦٦٤ م ودفن بمصر .

وكان موقع الفسطاط موقعا استراتيجيا . فلقد قامت فوق عدة تلال وفى سهل صحراوى شمال حصن بابليون يحدوه جبل المقطم شرقا والنيل غربا ومخاضة بركة الحبش جنوبا . وكان يصعب على أى قوات مداهمة المدينة من النيل أو الجنوب أو الغرب . أما الشمال فصحراء يجيد العرب الحرب فيها ولا يتفوق البيزنطيون عليهم فى فنونها البرية . كما أن الحصن مازال موجودا ويعتبر حصن المدينة الاسلامية .

وكانت بركة الحبش بجنوب الفسطاط يفيض بها النيل ابان الفيضان ثم تنحسر عنه المياه وتصبح أرضا مزروعة رغم وجود بعض المستنقعات بها . وكانت تمد المدينة بالخضراوات والفواكه والحبوب وتعتبر احدى روضات مدينة الفسطاط وأطلق عليها بركة الحبش لأن رهبان الحبشة كانوا يقطنون فى دير بها . ولقد وصف موسى بن عيسى والى مصر أيام هارون الرشيد والذى تولى الولاية عام ١٧١/٧٨٧ هـ منظر الفسطاط من ناحية بركة الحبش فقال لحاضريه : ترون ما أرى ؟ أرى عجبا ما هو فى شىء من الدنيا . أرى ميدان رهان وجنان نخل

وبستان شجر ومنازل سكن ودور جبل وجبانة أموات ونهرا عجاجا وأرض زرع ومراعى ماشية ومرتفع خيل وحسن وملاح سفينة وجادى ابل ومغارة رمل وسهلا وجبلا فهذه ثمانية وعشرون متنزها فى أقل من ميل فى ميل . هذه هى الفسطاط بعد قرن ونصف تقريبا .

ومدينة الفسطاط عند انشائها كانت مدينة مكشوفة الا أنها بموقعها الاستراتيجى كانت مدينة حصن . وكان يطلق عليها قبل امفتح مدينة (بابليون) . وكانت مدينة بها شيئا من الازدهار العفوى حيث كان يعسكر بها حامية بيزنطية وكانت منازلها متبعثرة وبها حصن تراجان (بابليون) وكان فى شمالها قناة تراجان التى كانت توصل المياه للحصن وفى شرقها جبانة حجرية رغم أن بيوتها من الطوب اللبن . ولم تكن مدينة حضرية سكنية وشمالها سهل صحراوى منبسط به قريتا أم دنين ومصر . وكان الحصن بالجنوب حوله مدينة الشمع .

فكان موقع فسطاط عمرو أنسب موقع لاقامة مدينة الجند واقامة المسجد الجامع ودار الامارة . فلهذا شيدت على نظام المدينة المنورة فقسمت الى خطط وكل قبيلة قد سكنت فى خطة (حارة) وبنوا فيها بيوتا أشبه بالأكواخ ومن دور واحد وحول كل بيت فضاء . فكان بها خطط الفارسيين الذين أسلموا وحاربوا وأهل الراية واللفيف وأهل الظاهر . وكان خطة أهل الظاهر معسكر استقبال الوافدين من الجند الجدد يقيمون فيه حتى يوزعوا على خطط أهليهم من القبائل . وكانت البيوت حولها فضاء صحراوى ليشعر أهلها أنهم يعيشون فى الصحراء .

وقد وصف ناصر خسرو مدينة الفسطاط التى زارها عام ١٠٤٧ م فقال : شيدت مصر (الفسطاط) على

ربوة خشية فيضان الماء وكانت مغطاة فى وقت ما بأحجار كبيرة ، فسرت وسويت ويقال للأماكن التى لم تسو عقبة . وتبدو مصر كلنها جبل حين ينظر اليها من بعيد . وكانت الفسطاط وقتها تضم العسكر والقطائع والقاهرة التى كانت قد أنشئت لأن خسرو زارها فى العصر الفاطمى .

وقد وصف المقدسى الفسطاط أيضا حيث بين أن منازلها كانت مرتفعة لعدة طوابق وأنها مدينة تجارية هامة بها بضائع الدنيا وأسعارها رخيصة وكان من رواجها كما يقول القلقشندى أيضا أنها خلت من الفقراء مما يصعب توزيع الزكاة لقلتهم . وكان سعيد بن جبير قد وصف الفسطاط فى رحلته بعد الحريق وكان فى طريقه للحج فقال أول ما تلاحظه العين قذارة المدينة القديمة . وبمدينة مصر الفسطاط آثار من الخراب الذى أحدثه الاحراق الحادث بها وقت الفتنة عند انتساخ دولة العبيد بين الفاطميين وذلك سنة ٥٦٤ هـ ، وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل وهى مدينة كبيرة ولا ينزل بها مطر الا فى النادر وترابها ينتن الأرجل . وهو قبيح اللون تستكدر منه أرجاؤها ويسوء بسببه هواؤها .

وقال أيضا : ولما اقبلت على الفسطاط أدبرت عنى المسرة .. وتأملت أسوارا مثلمة سوداء وآفاقا مغبرة . ودخلت من بابها وهو دون غلق يفضى الى خراب معمور بمبان مشتتة الوضع غير مستقيمة الشوارع وقد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة . وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال . ما يقبض نفس النظيف ويغص طرف الظريف .. فسرت الى أن صرت فى أسواقها الضيقة ، فقاسيت من ازدحام الناس فيها .. الى أن انتهيت الى المسجد الجامع ..

وكان ابن جبير قد زار ساحل الفسطاط فرآه كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار النيل .. والنيل هناك ضيق لكون الجزيرة التى بنى فيها سلطان الديار المصرية قلعته . وكان بين الفسطاط وجزيرة الروضة جسر من المراكب وبينها وبين بر الجزيرة جسر آخر . الا ان معظم الأهالى كانوا يعبرون النيل فى القوارب والمراكب بذويهم . لأن عبور الجسرين المؤديين لقلعة (قصر) السلطان يكون للراجلين وليس للراكبين) .

وكان المؤرخون الذين زاروا الفسطاط والرحالة قد صوروا الفسطاط بأنها مدينة تجارية وصناعية . حيث كان يصنع بها الصابون والسكر ومع هذا كان الخراب بها كثيرا .

ويرتبط خليج أمير المؤمنين الذى شقه عمرو بن العاص فى شمال الفسطاط ليصل الى السويس وكان متصلا بالنيل هناك . وسبب وصفه كما يقول ابن الظهيرة : انه لما جدبت المدينة عام الرمادة ١٧ هـ أرسل الخليفة عمر الى عمرو بالفسطاط قائلا : واغوثاه ! واغوثاه ! ما تبالى أن سمنت ومن قبلك أن أعجف أنا ومن قبلى . فرد عليه عمرو قائلا : لبيك ابل تترى أولها عندك وآخرها عندى برا وبحرا . وندم على ذكر البحر . الا أن الخليفة رد عليه قائلا : فأن الكلمة (البحر) التى فاهت منك فقد ندمت عليها . والله لأن لم ترسن من البحر لأرسلن اليك من يقتعلك أذنيك . وما كان ابن الخطاب يمزح . فأرسل ابن العاص المدد بحرا معتذرا على تأخر الميرة لبعد البحر عن الفسطاط . فسأله ابن الخطاب : عرفنى كم بينك وبين البحر (يقصد البحر الأحمر) فرد عليه قائلا : مسيرة ليلتين . فأمره الخليفة بالحفر من النيل للبحر ولو أنفق جميع مال مصر . فحفر الخليج .

ويروى ابن اياس فى بدائعه قائلا : لما استقل عمرو بن العاص بمصر جاء اليه القبط وقالوا له : أيها الأمير . (كان الولى يلقب فى كل ولاية بأمير الجند) . ان لنيلنا سنة كل سنة لا يجرى الا بها . فقال لهم : وما هى ؟ فقالوا له : اذا كان ليلة اثنى عشر من بؤونة (شهر قبطى) عمدنا الى جارية بكر وأخذناها من أبوابها غصبا أو رضا وجعلنا عليها الحلى ثم نلقى بها فى بحر النيل فى مكان معلوم . فرفض عمرو لأن هذا ليس فى الاسلام الا أن النيل لم يفض .

فلما حدث هذا ابلغ الخليفة عمر . فرد مع رسوله ببطاقة وطلب منه أن يلقيها فى النيل جاء فيها : بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب الى نيل مصر المبارك . ان كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك وألقى عمرو البطاقة فى النيل كما أمره الخليفة . قبل عيد الصليب بيوم واحد (١٧ توت) . فرأى المصريون أن النيل فاض . وكان فى جزيرة الروضة أمام الفسطاط يوجد مقياس النيل وهو عبارة عن عمود مدرج وكان به موظفون يقيسون ارتفاع منسوب المياه به . وهذا المقياس مازال موجودا الى الآن .

وفى سنة ٢٤ هـ أنشئت دار الصناعة بالروضة لصنع السفن الحربية لكثرة هجوم البيزنطيين على ثغر دمياط وتهديد الاسكندرية بحرا بأسطولهم . لهذا قال المقريزى : أطلق على جزيرة الروضة جزيرة الصناعة أو جزيرة مصر . علاوة على وجود دارى صناعة فى البحر الأحمر والاسكندرية . وكانت السفن تصنع من أشجار السنط التى كانت متوفرة بمصر ولاسيما فى البهنسا .

وكانت الفسطاط رغم خضوعها للدولة الأموية عام ٣٨ هـ وكانت تابعة لدمشق وقتها الا انها كانت موئلا للخوارج والزبيريين والشيعة . واستطاع الزبيريون السيطرة على الفسطاط عام ٦٤ هـ وأعلنوا تبعيتها للخلافة الزبيرية التى أعلنها عبد الله بن الزبير بمكة . وهذا ما جعل الخليفة الأموى مروان بن الحكم يرسل جيشا بقيادة ابنه عبد العزيز لوأد هذه الفتنة .

وابان خلافة مروان بن محمد الأموى كانت الفسطاط قد شهدت صراعات قبلية بين المضرية واليمينة . وكان الوالى الجديد حسان بن العتاهية وهو مضرى قد جاء وعزل الوالى حفص بن الوليد الا أن الجنود المضرية ثاروا لأنه منهم وطالبوا بعودته . فحاصروا دار الامارة وعزلوا حسان بعد ١٦ يوما من توليه . وهذا ما جعل الخليفة مروان يرسل حوثرة بن سهيل الباهلى ودخل بجيشه الفسطاط وقتل زعماء الثورة اليمنية ودعاة الخوارج معهم .

وعندما انهزم الخليفة مروان أمام العباسيين فى موقعة الزاب فر الى الفسطاط فلما بلغ غزة أمر باخلاء واحراق الفسطاط فى ثلاثة أيام ثم عبر النيل الى الجزيرة بعدها أحرق كل المراكب حتى لا يعبر بها خلفه . وأحرق الجسرين اللذين يصلان الفسطاط بالروضة والجزيرة بالروضة . وهذا الحريق أثار المصريين ضد مروان مما جعلهم يرحبون بالعباسيين

الا أن القائد العباسى أبو صالح بن على لما دخل الفسطاط بقواته عام ١٣٣ هـ/٧٥٠م عاث جنوده فيها فسادا ونهبوا الدور وحطموا كل شىء . وقتل مروان وأرسلت رأسه للخليفة العباسى .

وبعد حريق المدينة لم تهدأ بها الثورات ضد الولاة العباسيين أو بين القبائل العربية والأقباط . وكانت القوات العباسية بمدينة العسكر الجديدة تحصد رؤوس آلاف الثوار وتعلقها فى جامع عمرو . ولم تهدأ هذه الفتن الا بمجىء أحمد بن طولون عام ٨٦٠ هـ فطوال ١١٠ سنة من الحكم العباسى لمصر عام ٧٥٠ م . لم تهدأ الثورات والفتن التى كان وراءها الجمعيات السرية بها ، وكانت تضم الشيعة والملاحدة والفرس . وكان الوالى العباسى أبو صالح أول من واجه الفتن والسرقات التى تفشت فى المدينة ومنعها . وكان يفخر أنه أمن الفسطاط وأشاع بين أهلها بأن يغلق كل واحد باب بيته أو حانوته بستارة من شرائح القصب حتى لا يدخلها الكلاب من الأبواب وجعل الحمامات بلا حراسة . ويقول الكندى فى (الولاة) بان أبا صالح قال : من ضاع له شىء فعلى أداؤه . فكان الرجل يدخل الحمام . فيضع ثيابه ويقول : يا أبا صالح احفظها . ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منها .

وكانت سياسة الخلافة منذ عهد المعتصم العباسى التخلص من القبائل العربية فى جيوش الخلافة . فقطع أرزاقها من بيت المال بالفسطاط وهذا ما جعل هؤلاء العرب يسيحون بالبلاد تاركين المدينة ليعملوا ويزرعوا الأرض ويكسبوا أرزاقهم . فاختلطوا بالمصريين وأثروا فيهم بمعاملتهم الطيبة وسماحتهم وكرم أخلاقهم فأحس القبط بهذا وتعايشوا معا فى سلام وأسلم الكثيرون حتى أصبحت مصر أغلبية اسلامية شاعت بينها اللغة العربية . فرب ضارة للعرب نافعة للاسلام .

وكان الوالى بمصر نائبا عن الخليفة ويطلق عليه أمير مصر . وفى أيام العباسيين بصاحب اقطاع مصر ، لأنه

كان نائبا عن الخليفة أو الأمراء أو القواد الذين كان من بينهم من انعم عليه باستغلال خراج مصر كاقطاعية له ينيب عنه واليا . وكان يطلق على الوالى أمير الصلاة لأنه نائب عن الخليفة لامامتها . ولم يكن قبل العصر العباسى له سلطة جمع الخراج لأن الخليفة كان يعين عمالا لجمعه . لهذا كان الوالى بلا سلطة على عامل الخراج الذى كان يتبع الخليفة رأسا . لكن كان صاحب الشرطة تابعا للوالى وله حق تعيينه . كما أن الوالى كان له امارة الجند حيث كانت الحامية العسكرية تخضع لأوامره . وعمرو بن العاص كان قد جمع بين الامارة والخراج أيام ولايته لمصر . وكثير من الولاة بالفسطاط كانوا يتغيرون الا أن قليلين من عمال الخراج ما كانوا يتغيرون . لأن الولاة كانوا بأيديهم الجند فكان الخلفاء يخشون تمردهم عليهم أو يستعملونهم ضدهم .

وفى عصر الفتح كانت مدينة الفسطاط اغلبية مسلمة بينما كانت مدن مصر أغلبية قبطية ، لهذا ظل العرب يطلقون على الأقباط المصريين حتى القرن الثانى الهجرى .

وهناك مقولة أن الأقباط رحبوا بقوات الفتح الاسلامى ولم يعاونوا المسلمين على فتح مصر ، وهذه المقولة مغرضة الى حد ما . لأن البيزنطيين قد جاءوا بأسطولهم عام ٦٤٥ م ونزلوا الاسكندرية والدلتا . فطالب المصريون من الخليفة عثمان أن يرسل عمرو بن العاص وكان قد عزله لأنه أعلم بالبيزنطيين فأرسله وطردهم وأمن مصر .

وكان عمرو بن العاص قد عين ربيعة بن شرحبيل لتحصيل المكس فى ثغر أم دنين شمال الفسطاط فكان مقره المقس . واصل

كان نائبا عن الخليفة أو الأمراء أو القواد الذين كان من بينهم من انعم عليه باستغلال خراج مصر كاقطاعية له ينيب عنه واليا . وكان يطلق على الوالى أمير الصلاة لأنه نائب عن الخليفة لامامتها . ولم يكن قبل العصر العباسى له سلطة جمع الخراج لأن الخليفة كان يعين عمالا لجمعه . لهذا كان الوالى بلا سلطة على عامل الخراج الذى كان يتبع الخليفة رأسا . لكن كان صاحب الشرطة تابعا للوالى وله حق تعيينه . كما أن الوالى كان له امارة الجند حيث كانت الحامية العسكرية تخضع لأوامره . وعمرو بن العاص كان قد جمع بين الامارة والخراج أيام ولايته لمصر . وكثير من الولاة بالفسطاط كانوا يتغيرون الا أن قليلين من عمال الخراج ما كانوا يتغيرون . لأن الولاة كانوا بأيديهم الجند فكان الخلفاء يخشون تمردهم عليهم أو يستعملونهم ضدهم .

وفى عصر الفتح كانت مدينة الفسطاط اغلبية مسلمة بينما كانت مدن مصر أغلبية قبطية ، لهذا ظل العرب يطلقون على الأقباط المصريين حتى القرن الثانى الهجرى .

وهناك مقولة أن الأقباط رحبوا بقوات الفتح الاسلامى ولم يعاونوا المسلمين على فتح مصر ، وهذه المقولة مغرضة الى حد ما . لأن البيزنطيين قد جاءوا بأسطولهم عام ٦٤٥ م ونزلوا الاسكندرية والدلتا . فطالب المصريون من الخليفة عثمان أن يرسل عمرو بن العاص وكان قد عزله لأنه أعلم بالبيزنطيين فأرسله وطردهم وأمن مصر .

وكان عمرو بن العاص قد عين ربيعة بن شرحبيل لتحصيل المكس فى ثغر أم دنين شمال الفسطاط فكان مقره المقس . واصل

أن يدلى بشـــهادته والا رفضـــت . وكان أحمد بن حنبل قد رفضـــها وســـجن بسبب هذا الرفض وعذب . ولما تولى الواثق العباسى أمر قاضى الفســـطاط محمد بن الليث امتحان الناس جميعا فى مصـــر ولم يبق أحد لم يؤد هذا الامتحان وكتب على مســـاجد الفســـطاط (لا اله الا الله رب القرآن المخلوق) . وظلت هذه المحنة قائمة حتى أبطلها المتوكل العباسى عام ٢٣٤ هـ . وكان كل من لا يقر بهذه المسألة يعتبر من الزنادقة ويســـجن ويعذب .

وفى ولايتى عبد العزيز بن مروان ومسلمة بن مخلد لمصر بنيت كنيســـتا مار جرجس وأبو قير داخل قصر الشمع وجددت كنيسة القديس مرقص .

وفى أواخر العصـــر الفاطمى شـــهدت الفســـطاط الحريق المروع الذى وصـــفه لنا ابن اياس فى بدائعه قائلا : أيام العاضد (الفاطمى) اســـتولى الفرنج على الديار المصـــرية ودخـــلوا بمراكبهم الى بحر النيل ونزلوا على مدينة الفســـطاط بالقرب من بركة الحبش . فأحط الفرنج بمدينة الفســـطاط وأشـــرفوا على أخذها . وكان ملك الفرنج يســـمى مرى (عمورى أو أمالوريك) . وكان معه ســـبعين مركبا مشـــحونة بالمقاتلين (الصليبيين) . فلما رأى الخليفة العاضـــد عين الغلب وصـــار الفرنج يأسرون جماعة من المســـلمين وينهبون أموالهم وقرروا على أهل مصـــر والقاهرة أموالا جزيلة واخذوا فى أســـباب جبايتها . فعند ذلك أشـــار الوزير شـــاور على الخليفة بحرق مدينة الفســـطاط خوفا من الفرنج أن يملكوها . فأذن له الخليفة بحرقها . فجمع الوزير العبيد وأحرقوها . وكانت القـــاهرة فى غاية العمارة والتحصـــين . فلما أحرقت مدينة الفســـطاط تحول الناس الى القاهرة . وقيل بلغ كراء الجمل من مدينة الفســـطاط الى القاهرة

عشرة دنانير لكل نقلة . وصارت النار عمالة فى مدينة الفسطاط واحد وخمسين يوما حتى صار الدخان يرى على مسيرة ثلاثة أيام . فلما رأى الفرنج ذلك خافوا ورحلوا عن مصر ..) .

وكان هذا الحريق عام ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م الا أن أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الايوبى لما تولى الوزارة قبض على شاور وصلبه على باب القاهرة لأنه أشار على الخليفة باحراق هذه المدينة التى نكبت . وكأن هذا الحريق فأل نحس للعاضد الذى انتحر بابتلاع فص ماسى بعدما سمع بأن اسمه قد قطع من خطبة الجمعة وذكر اسم الخليفة العباسى ، لأن صلاح الدين الأيوبى قد قضى على الخلافة الفاطمية بعد حريق الفسطاط بثلاث سنوات .

وأصبحت الفسطاط مدينة أشباح خاوية على عروشها عدة قرون وفقدت أهميتها كعاصمة التجارة والمال والصناعة ولم يبق منها سوى جامع عمرو بن العاص الذى أنقذ من هذا الحريق المشهود والذى ظل بالمدينة ٥٤ يوما . ونزل أهالى الفسطاط بالقاهرة فى الحمامات والأزقة والمساجد . وكان شاور بعد ما أمر باحراقها بالنفط وأصبحت هذه المدينة المحترقة كيمان كما يقول المقريزى .

(٣)

الجـــامع العتيـــق

عندما أنشأ عمرو بن العاص مدينة الفســطاط أقام مسجده الجامع عام ٦٤١ م/٢١ هـ وهو فى مكان كان ينصب فيه رايته أثناء حصــار حصــن بابليون لهذا أطلق على ميدان الجامع ميدان الراية . وكان يســكن حوله أهل الراية وهم من قريش الذين كانوا يحملون راية المسـلمين أثناء الحصــار . وكانوا قد ضربوا الخيام فى هذا المكان .

وقصـــة بناء جـــامع عمرو أن امرأة يهودية كانت تمتلك الأرض وطلب منها عمرو شــراءها فرفضــت . ولم يجبرها على البيع الا أنه تحايل عليها بدهائه . فطلب منها شــراء قطعة فى مســاحة جلد ثور فوافقته . لكن عمرا لم يخنه دهاؤه . فقطع جلد الثور الى أحبال رفيعة (فتائل) وربطها فوق الأرض وحدد بها مســاحة الجامع التى أقام عليها مسجده .

ويقول ابن ظهيرة فى (محاسن مصــر والقاهرة) عن الجامع العتيق :

بناه عمرو بن العاص ســوى ما تجدد فيه بعده .. وأن طوله خمســين ذراعا فى عرض ثلاثين) . وكان الجامع مستطيلا

طوله ٢٨ مترا وعرضه ١٧ مترا وسقفه منخفضا وكان من سعف النخيل ولم يكن به مئذنة ولا منبر وواجه عمرو مشكلة تحديد القبلة ويقول ابن ظهيرة : انه وقف على اقامة قبلته ثمانون صحابيا من بينهم الزبير بن العوام والمقداد بن الأسود وعبادة بن الصامت وأبو الدرداء وأبو ذر الغفارى وغيرهم لتحديدها) .

وكان للمسجد بابان مقابلان لدار عمرو وبابان بحريان وبابان غربيان . وكان الجامع الغربى محاذيا لدار عمرو (دار الامارة) ووصف ابن ظهيرة بقية الجامع قائلا : كان طوله من القبلة الى بحرية مثل طول دار عمرو وسقفه مطأطئا جدا ولا صحن له . وكان الناس يضيقون بفنائه . وكان بينه وبين دار عمرو سبع أذرع وكان الطريق محيطا به من جميع جهاته .

ولما اتخذ عمرو به منبرا طلب منه الخليفة عمر كسره قائلا له : اما بحسبك أن تقوم فيه قائما والمسلمون تحت قدمك فكسره ابن العاص .

وأول من وسع فى الجامع مسلمة بن مخلد والى معاوية سنة ٥٣ هـ / ٦٧٣ م واضاف له رواقا فى الشمال وكسى أرضيته بالحصر واقام المآذن ليؤذن فوقها المؤذنون بدلا من قرع الأجراس الخشبية ولا سيما فى صلاة الفجر .

ووسع فيه عبد العزيز بن مروان عام ٧٩ هـ/٦٩٨ م . وكان والى مصر وقتها من قبل الوليد بن عبد الملك . لكن الوليد بعد ذلك كلف واليه قرة بن شريك العبسى بهدمه عام ٩٢ هـ/ ٧٠٩ م واعادة بنائه . وكان المصلون يصلون الجمعة وقتها فى قيسارية العسل قرب دار الامارة حتى فرغ من بنائه فى رمضان ٩٣ هـ/٧١٠ م . ونصب بالمبنى الجديد منبر وأقيم فيه

محراب مجوف للقبلة سـمى بمحراب عمرو لانه كان على هيئة المحراب القديم الذى لم يكن مجوفا . وأصبح طول الجامع ١٩٠ ذراعا بدلا من ٥٠ ذراعا .

وخلال العصـور اللاحقة عنى بالجامع ففى ولاية عبد الله ابن طاهر أيام المأمون العباسى ضـاعف فى مسـاحة المسجد عام ٢١٢ هـ/٨٢٧ م . واضـيف للمسـجد اضافات من بينها غرفة المؤذنين فوق السـطح والتى أقامها القاضى العجيفى والفوارة والسـقف الخشـبى حولها عاه ٣٢٧ هـ/٩٨٨ م أيام الحـاكم بأمر الله الفاطمى . وكان قد أمر باقامة رواقين فى صـحن الجامع وقلت لهذا العمد الخشـبية التى أقامها احمد بن طولون . وأيام المسـتنصر الفاطمى أزاد فى سـعة المقصـورة من جانبيها الشـرقى والغربى وطوق المحراب بطوقين من الفضـة وذهب حائط القبلة وحول المنبر ثم اقام مئذنة جديدة . وظل الجامع على هيئته بعد حريق الفسـطاط الى أن جدده مراد بك شيخ البلد عام ١٧٩٢ م وأصبح على هيئته حتى الآن الى أن جدد أخيرا .

وكان يطلق على جامع عمرو جامع الفتح أو الجامع العتيق أو تاج الجوامع أو جامع الفسـطاط او الراية . ولما أنقذ من الحريق أصـيب ببعض الأضـرار فقام صـلاح الدين الأيوبى بتجديده فأعاد صـدر الجامع والمحراب الكبير ورخمه كما يقول المقريزى . ويعتبر الجامع اقدم أثر اسلامى بأفريقيا .

وأيام الفاطميين كان الرحالة الفارسى ناصـر خسـرو قد زاره عام ١٠٧٤ م . وكانت زيارته قبل الحريق . وفوصفه قائلا : فى وسـط سـوق مصر (الفسطاط) جامع يسمى باب الجوامع ... وهذا المسـجد قائم على أربعمائة عمود من الرخام . والجدار

الذى عليه المحراب مغط كله بألواح الرخام الأبيض التى كتب القرآن عليها بخط جميل ، ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع الأسواق وعليها تفتح أبوابه . ويقيم بهذا المسجد المدرسون والمقرئون . وهو مكان اجتماع سكان المدينة الكبيرة ولا يقل من فيه فى أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها) .

ويروى خسرو رواية طريفة عن الحاكم بأمر الله الذى اشترى المسجد من أحفاد عمرو بن العاص . وكانوا قد ذهبوا اليه قائلين : نحن فقراء معوزون وقد بنى جدنا هذا المسجد . فاذا أذن السلطان نهدمه ونبيع أحجاره ولبناته . الا أن الحاكم اشتراه منهم بمائة ألف دينار واشهد عليهم أهل مصر .

ولما حاول هدمه وتجديده رفضوا قائلين : لقد بعنا لك الجامع ولم نبع لك المآذن فعوضهم عنها ، وهذه القصة رويت أيضا عن أحفاد أحمد بن طولون وجامعه . الا أن هذه القصة مدعاة للشك ولا سيما وأن خسرو كان من غلاة ودعاة الفواطم . لأن المساجد لله وهى بيوته سبحانه وتعالى .

وكان الحاكم قد أقام بالجامع ثريا فضية (نجفة كبيرة) لها ١٦ ذراعا جانبيا على شكل دائرة نصف قطرها ٢٤ ذراعا (قياس) ووزن هذه الثريا ٢٥ قنطار فضة أى أكثر من طن وزنا وبها ٧٠٠ قنديل ولما حاول العمال ادخالها لم يسعها الباب فخلع من مكانه وبعد ادخالها وضع كما كان . وفرش المسجد بعشر طبقات من الحصر الملون . وكان المسجد يضاء كل ليلة بمائة قنديل .

وجامع عمرو حاليا مساحته أربعة أمثال مساحته عند انشائه ويختلف فى شكله وهيئته عن المسجد القديم .

ومازال له شـــهرته بالقاهرة . وكان ســـلاطين مصـــر وملوكها يفضـــلون صـــلاة الجمعة اليتيمة به فى رمضـــان . وكان المشايخ والقساوسة والأحبار يصـــلون فيه صـــلاة الاستسقاء ليفيض النيل حاملين القرآن والانجيل والتوراة .

وظل جامع عمرو مقر بيت المال حتى نقله المعز الى جامع ابن طولون وكان يجلس به القضـــاة والفقهاء ليدرســـوا علوم القرآن والتفســـير وكثيرا ما كان الفقهاء يحتدون معا فى مناقشاتهم مما جعل الاخشـــيد يغلق الجامع فترة ولم يكن يفتح الا للصلاة فقط .

وكان ابن جبير قد زار جامع عمرو بعد الحريق بفترة وجيزة فوصفه قائلا : عاينت جامعا كبير البناء غير مزخرف ولا محتفل فى حصـــره التى تدور مع بعض حيطانه وتنبســـط فيه . وبصرت العامة رجالا ونســـاء قد جعلوه معبرا . بأوطئة اقدامهم يجوزون فيه من باب الى باب ليقرب عليهم الطريق . والبياعون يبيعون فيه أصـــناف المكســـرات والكعك وما ســـوى ذلك . وعدة صبيان بأوانى ماء يطوفون على كل من يأكل . قد جعلوا ما يحصـــل لهم منه رزقا . وفضـــلات مأكلهم مطروحة فى صـــحن الجامع . وفى زواياه العنكبوت قد عظم نســـجه فى السقف والأركان والحيطان . والصـــبيان يلعبون فى صـــحنه . وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة مختلفة .. الا أن مع ذلك . على الجامع المذكور الرونق وحســـن القبول وانبســـاط النفس مالا تجده فى جـــامع اشـــبيلية (بالأندلس) مع زخرفته . والبســـتان فى صحنه . واســـتحسنت ما أبصـــرته من حلق المتصـــدرين لاقراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن . وكان ابن جبير قد زار مصـــر وهو فى طريقه للحج أيام صـــلاح الدين الأيوبى .

وكان جامع عمرو مقر متولى الخراج أيام الدولة العباسية التى كانت مصـــر تعتبر اقطاعية لها فكانت الأراضى الزراعية تؤجر ســـنويا بنظام قبالة الأراضى . ويقول المقريزى : كان متولى خراج مصــــر يجلس فى جامع عمرو بالفســـطاط حيث يجتمع الناس من القرى والمدن ، فيقوم رجل ينادى على البلاد (الناحية) صــــفقات صفقات (كالمزاد) . وكتاب الخراج بين يدى متولى الخراج يكتبون ما ينتهى اليه مبالغ الكور (كانت مصر مقسمة كورات) والصــــفقات على من يتقبلها الناس) . وكان استئجار الأرض لمدة ٤ ســــنوات . وهذا النظام عرف بالالتزام . وكان الملتزم يخرج ويقوم بزراعة الأرض واصــــلاح الجســــور ويســـــتخدم من يراه فى العمل بأرضـــه . وما عليه ســـوى دفع أقســــاط الالتزام فى مواعيدها حتى يوفى مبلغ القبالة . وظل هذا العمل ســــاريا بجامع عمرو حتى نقل أحمد بن طولون القبالة فى جامعه .

والقبالة هى التزام شـــخص بدفع ضـــريبة الخراج مع خصـــم عمارة الجســــــور الزراعية ،وكانت هذه الضــــــرائب العباســــية قد جعلت الوالى ضــــامنا لخراج مصر بدفع مبلغ ثابت ســـنويا لبغداد أو لصـــاحب اقطاعية مصــــر وكان يحدده الخليفة من بين الأمراء والقواد الكبار ، لكن هذا النظام الغى عندما طبق الروك الســــلطانى أيام صـــلاح الدين حيث اقتطعت الأرض وكانت توزع على لســـلطان والأمراء والجنود وظل هذا النظام الالتزام والقبالة حتى فى عهد محمد على أصبحت مصر اقطاعية وطبق نظام الروك .

وكان القاضى بجامع عمرو يســـــمح للقبط واليهود بدخول الجامع لعرض قضـــاياهم لأن محاكمهم الخاصـــة بهم لم تنصفهم ويعتبر حكمه نهائيا وملزما لجميع الأطراف .

وكان الخليفة سواء فى المدينة أو دمشق أو بغداد يعين قاضى مصر ومقره جامع عمرو . وكان نادرا ما يتغير القضاة . وكانوا يتبعون للخليفة رأسا . وكان القضاء مستقلا تماما عن الوالى . وله الحق فى تعيين نوابه ومعاونيه وينفق عليهم رواتب من بيت المال .

وكانت تعقد مجالس القضاء فى جامع عمرو بدار العدل فيحكمها فى الأمور المدنية والجنائية والشرعية ، وقد يرجع القاضى للخليفة ليحكم فى مسألة لضمان العدالة . وكان التظلم من حكم القضاة للخليفة رأسا لانصاف المظلومين . ومنذ العصر العباسى كان يوجد قضاة يحكمون حسب المذاهب الأربعة . وكانت الأحكام تدون . وكانت مهمة القاضى تحديد رؤية الهلال فى رمضان والعيدين وكان يخرج من جامع عمرو ومعه الشهود للرؤية الى الجيزة . وكان يتبعهم الاحباس (الأوقاف) ويشرفون عليها منذ ١٨ هـ/٧٣٧ م .

(٤)

العاصمـــة الثانيـــة

لما أصـــبحت مصر خاضعة للخلافة العباسية قام عساكرها بعد احراق وتخريب الفســطاط بانشـــاء معســـكر لهم فى شمال شـــرق المدينة وأطلقوا عليه مدينة العســـكر عام ١٣١ هـ/٧٥١ م ، وظلت هذه المدينة مقرا للولاة العباســـيين لمدة ١١٨ سنة حتى تولى أحمد بن طولون وأسس مدينة القطائع عام ٢٥٧ هـ/٨٧٠ م .

وكانت الفســـطاط وحتى زمن الخليفة العباسى المنصـــور تتصـــل بالبحر الأحمر عن طريق خليج أمير المؤمنين وكانت السفن كما يقول المقريزى تســـير فيه حاملة التجارة الى الحجاز واليمن والهند . لكن لما ثار الشـــيعة فى الحجاز أيام محمد النفس الزكية أمر الخليفة بطمر الخليج حتى لا تحمل الميرة من مصـــر الى المدينة المنورة . وانقطع منذ هذا الوقت اتصـــال الفســـطاط بالبحر الأحمر . الا أن التجارة لم تنقطع فلقد كانت تســـير المراكب الى قوص بالوجه القبلى وتنقل القوافل بالجمـــال البضـــائع عبر الصحراء بجنوب مصر الى ميناء عيذاب (رأس بيناس) على البحر الأحمر ومنه تحملها السفن للحجاز والهند وكانت البضائع تصله من الشـــرق الى قوص وبالنيل تصـــل الى الفســـطاط . وظل هذا الخط التجارى سائدا حتى افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ م .

وبعد انشاء العسكر كانت طبوغرافية الفسطاط كما وصفها المقريزى منطقتين . احدهما كانت تلتف كحدوة الحصان طرفها جبل يشكر شمالا (جامع ابن طولون) وجبل الرصد وكانت تضم هضبة المقطم وكان يطلق عليها عمل فوق . لأن هذه المنطقة كانت تلية مرتفعة بمنأى عن فيضان النيل بعيدة عن ابخرة المستنقعات التى كان يخلفها الفيضان بعده .

وكانت المنطقة الأولى تحتضن وتلف حول المنطقة الثانية المنخفضة نسبيا وكان يطلق عليها عمل تحت وكانت عرضة للفيضان والأبخرة والمستنقعات والدخان والأتربة وكانت شوارعها مليئة بتصاريف المجارى وأرضيتها حجرية تمنع تسرب المياه التى كانت تصرف فى النيل وتلوث مياهه للشرب .

لكن المدينة الجديدة قد اختارها قائد الحامية العباسية أبو صالح بن على مكان معسكره عندما كان يحاصر الفسطاط للاستيلاء عليها من الأمويين . وما كان عليه سكنى مدينة خربة قد أصبحت اطلالا بعد احراقها . فاتخذ أبو صالح هذه المعسكرات عاصمة الولاية وأقام بها مع جنوده . الا أن هذه الضاحية الجديدة قد اندمجت مع الزمن بالفسطاط واصبحت المدينتان على هيئة مثلث قاعدته من الجنوب الى الشمال بحذاء النيل من قصر الشمع الى جبل يشكر وعلى رأس كل زاوية من ثلاث زوايا المثلث كان يوجد باب . وهذه الأبواب الثلاثة هى باب الصفا بالشرق وباب مصر بالشمال وباب القنطرة بالجنوب حيث

كان بين الفسطاط وجزيرة الروضة جسر من المراكب يوصل عبر الجزيرة الى جسر الجيزة والروضة .

وبعد انشاء مدينة العسكر أقيم جامع بها ثم انتقلت الشرطة العليا من الفسطاط اليها لتصبح شرطة الفسطاط تابعة لها ، وأصبحت العسكر عاصمة اقطاعية مصر العباسية . وأيام حكم الوالى العباسى حاتم بن هرثمة بنى فوق جبل المقطم مكان قلعة صلاح الدين حاليا قبة الهواء وكان المصريون يطلقون عليها قبة الدخان وكانت قصرا صيفيا الا أن جامع عمرو ظل به بيت المال والقضاء والتدريس .

والعسكر رغم انها عاصمة مصر الا انها لم تطغ على الفسطاط كمدينة تجارية . فالعسكر كما يقول ستانلى لينبول فى (قصة القاهرة) كانت حى الموظفين لكنها لم تقلل من عظمة الفسطاط وأهميتها كحاضرة مصر . ورغم أن هذه المدينة امتلأت بالشوارع والميادين وكانت مقر ٦٥ واليا عباسيا الا انها لم يبق منها حاليا أى أثر .

وكانت هذه المدينة عبارة عن حصن بلا أسوار لأن الفسطاط لأكثر من قرن كانت تموج بالثورات والفتن ولا سيما أيام خلافة المأمون العباسى الذى أتاها عام ٢١٧ هـ/٨٣ م بنفسه وهو أول خليفة يزور مصر . وكان سبب مجيئه على رأس جيش أن ثورة الفسطاط اندلعت وامتدت الدلتا وكان الأقباط قد أشعلوها . الا أن المأمون أخمدها الى حين .

وكان للمدينتين قرافة مصـــر وكانت جزءا من جبل المقطم أو جبل مصـــر كما كان يقال . وقد ســـمى بالمقطم نســـبة الى المقطم بن مصر حفيد ســـيدنا نوح وكان ينزل به . وكان عمرو بن العاص قد عرض عليه قيرس (المقوقس) شـــراءه لأنه أرض كان به غراس أهل الجنة . فأرســـل ابن العاص للخليفة عمر يطلب منه ابتياعها بعشـــرين ألف دينار وروى ما قاله قيرس ، فرد عليه الخليفة قائلا : لا أعرف غراس الجنة غير المؤمنين فاجعلها مقبرة لهم . ويقول ابن زولاق فى (محاسنه) بأنه دفن بهـــا اثنان وسبعون أميرا أولهم عمرو بن العاص وآخرهم كافور .

(٥)

العاصمــــة الثالثـــة

يعتبر احمد بن طولون من أقدر من حكم مصـــر ولا سيما في عصر الولاة وكان عمره ٣٣ عاما عنـد تولى الولاية وكان من الأتراك . وشـــعر المصـــريون خلال فترة حكمه بالعدل والأمن والرخاء .

فلأول مرة فى مصـــر نجد أن حاكما يضـــع ســـياسة اقتصـــادية وعمرانية وزراعية . ومما ســـاعده أن النيل كان يفيض فى عهده بانتظام . وكانت مصـــر طوال حكمه مســـتقلة استقلالا ذاتيا عن الخلافة ببغداد وكانت مدينته الجديدة عاصمة لها وزنها الســـياسى والعســـكرى فلقد استطاع كبح ثلاث ثورات قامت ضـــده بمصـــر وجعل دولته تمتد من النيل للفرات وكانت برقة بليبيا تتبعه . وهذه هى أول مرة فى تاريخ مصر الاسلامية تصـــبح حاكمة للشـــام وفلســـطين وشمال الفرات وبلغت حدود مصر الشمالية الشرقية تخوم جبال طورس على حدود الامبراطورية البيزنطية فحمى الخلافة العباســـية ببغداد من الخطر البيزنطى الذى كان يداهم الثغور والأربطة على الحدود وكانت الخـــلافة العباسية قد نخر فيها الفساد والفتن .

وكان ابن طولون قائدا موهوبا ومخططا ممتازا استطاع الصمود أمام العباسيين وكبح جماحهم بل حمى الخليفة نفسه من معارضيه ومنافسيه والمنشقين عليه . فابن طولون شخصيته قدرية ارسلها الله من أجل رخاء مصر . وها هو ابن وصيف شاه يصف عصر ابن طولون قائلا : أخذ فى أسباب العمارة قرى مصر وعمارة جسورها وقناطرها وحفر خلجانها وسد ترعها .. فاستقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه بعدما قد تلاشى أمرها الى الخراب وانحط خراجها فى أيام من تقدمه من العمال (عمال الخراج) .

وأنشأ ابن طولون جيشا واسطولا وكثر من ضم المماليك والعبيد والعرب له . وحاول الخليفة المعتضد العباسى القضاء عليه لكنه فشل . وطلب الخليفة منه تزويجه حفيدته قطر الندى ابنة خماويه وأصدقها مائة ألف دينار . فجهزها وأرسلها فى موكب عرس ومعها جهازها صنعه أمهر صناع مصر ، وكان المعتضد متيما بها .

ووجد أحمد بن طولون أن مدينة العسكر قد ضاقت به وبجنوده ولا تليق أن تكون عاصمة امارته الناهضة . ففكر فى عام ٨٦٠ م فى انشاء مدينة سماها القطائع انشأ بها قصره ومنازل الطولونيين . كما أقام بها جامعه الشهير والميدان . فلقد خطط المدينة الجديدة على هيئة سامراء بالعراق . فجعلها على شكل دائرى وملاصقة لمدينة العسكر وكانت عكس الفسطاط والعسكر . لأنهما كانتا معا على شكل مثلث . وجعل المدينة فى شمال شرق العسكر بين جبل يشكر الذى بنى فوقه جامعه وبين سفح المقطم أى من الرميلة حاليا الى القلعة وحتى جامع زين العابدين وكانت القطائع مساحتها ميل

مربع . وبنى قصـــره مكان قبة الهواء (القلعة حاليا) وجعـــل أســـواق المدينة فى صـــفوف وكل صـــف كان متخصصا فى بيع بعض الأصـــناف . أما الميدان فكان للتدريب على الرماية والخيل والســـباق وكان به اســـطبلات الخيول وكان يقع فى شـــرق المدينة وتقام به العروض العســـكرية التى كان يحضرها الأهالى . وكان يصـــل القصـــر بالجامع طـــريق يتوجه منه ابن طولون لصـــلاة الجمعة بجـــامعه . وقد بنى القواد والضـــباط حوله القصـــور . وكان للميدان عدة أبواب . وكان ابن طولون أثناء العرض يجلس على منصـــة المقصورة فوق مكان مرتفع يطل منها على الميدان .

وقد بنى ابن طولون بيمارســـتان فى القطائع عام ٨٧٤ م . وكان خاصـــا لعلاج الشـــعب وحرم دخوله على جنوده وكان موضـــــعه بين جامع ابن طولون وقنطرة الخليج وأوقف عليه الأوقاف وكان به حمامان للشـــعب أحدهما للرجال والثانى للنساء وكان ايرادهما للانفاق على البيمارســـتان . وكان يقدم به الملابس والطعام للمرضى والعلاج بالمجان وكان يزوره ابن طولون كل يوم جمعة بعد الصـــلاة .

وقد بنى ابن طولون مســـجدا ثانيا بالقـــرافة وآخـــر فى الروضـــة وأقام مسجد التنور فوق المقطم وبنى ديوان الخراج بالعسكر .

وكان خمارويه قد خلف أباه وكان كما يقول ابن وصـــيف شـــاه مولعا بالعمارة وغرس الأشـــجار . فلقد أقام حديقة قرب جامع أبيه ونقل اليها الأشـــجار من ســـائر البلاد الهندية والشامية والحجازية فكان بها ســـائر الفواكه والرياحين (الورود المعطرة) حتى الكادى والقرنفل والزعفران وجوز الهند . وزرع الرياحين فى اشكال كلمات مثل (حسبنا الله ونعم الوكيل) .

وكان البستانيون يهذبونها بمقصات من الذهب والفضة يقلمون بها هذه الشجيرات والبس توائم (جذوع) الأشجار بالنحاس الأصفر المطلى بالذهب . وكان يسحق الكافور والمسك وينثره فوق الرياحين .

ويقول ابن وصيف شاه فى وصفه : وصنع فى ذلك البستان بحيرة كبيرة وملأها بالزئبق وكان يضع على ذلك الزئبق فراشا (مفرش) من جلد خباة أنعم من الحرير وكان له حركات (فتحات) تمتلىء بالريح ثم يسد فاه بحبل ويطرح ذلك الفراش (المرتبة الهوائية) على ذلك الزئبق وينام عليه . وطبعا لا يغوص لأن الزئبق كثافته عالية جدا بالنسبة للماء وهو أثقل العناصر الكيماوية .

وجعل خمارويه بقصر الامارة قاعة الذهب وفوق جدرانه المبطنة بالخشب حفر عليه الصور ولا سيما صور محظياته وقد وضع فوق رؤوسهم أكاليل من الذهب الخالص المرصع بالجواهر وفى اذانهن أجراس ثقال الوزن ومحكمة الصنع كما يقول المقريزى .

ومدينة القطائع تعرضت بعد سقوط الدولة الطولونية للتدمير والنهب والسلب بعدما دخلتها القوات العباسية عام ٢٩٢ هـ/٩٣٤ م بعد أكثر من سبعين سنة على بنائها . ولم يبق سوى جامع ابن طولون بعدها أصبحت مصر ولاية عباسية وأصبحت العسكر ثانية مقرها . ويعتبر الحكم الطولونى اول حكم متوارث فى مصر منذ عهد البطالمة .

لكن المصريين حزنوا على مصير الطولونيين وشهدت الفسطاط ثورة دامية قام بها الشعب بقيادة الشاب الخلنجى وكانت تطالب بعودة الطولونيين . وطرد الثوار الجنود العباسيين

من الفسطاط والاسكندرية وظلت هذه الثورة مندلعة لمدة عام حتى أغتيل الخلنجي قائدها . واستغل الفاطميون هذه الثورة فأرسلوا قوات لهم من المغرب وحاربت القوات العباسية ووصلت الجيزة غرب الفسطاط . الا أنهم عادوا للمغرب وكان الولاة العباسيون طوال ٣٠ سنة معزولين في قصر الولاية بالعسكر . فالبلاد في فوضى الى أن تولى الاخشيد ودخل بقواته الفسطاط عام ٩٣٥ هـ من النيل . وجعل مقره قصر المختار الذى بناه بالروضة الا أن الدولة الاخشيدية لم تعمر طويلا وقد حكمها كافور الاخشيدى مدة ٢٢ سنة وكان عبدا خصبا للاخشيد . وكانت الفسطاط قد ازدهرت فى عهده .

ويعتبر جامع ابن طولون طرازا فريدا فى عمارته ولا سيما مئذنته الملوية التى كانت على طراز مآذن جوامع مدينة سامراء بالعراق . وقد بناه عام ٢٦٣ هـ/٨٧٦ م . فوق قمة جبل يشكر الصخرية وكانت مسطحة . وقد استخدم الآجر (نوع من الفخار) فى بناء العقود والدعائم (الأعمدة) لأنه أراد أن يكون بمنأى عن الحريق . فبنى من الآجر والرماد والجير . ولهذا قاوم النيران عند احراق القطائع فى تدمير القوات لعباسية لها بعد ٥٨ سنة من بنائه فلأول مرة تبنى الدعائم بدلا من الأعمدة الرخامية فى مسجد ابن طولون . ولو كانت من الرخام كما فى جامع عمر لاحترق من الحريق . واستخدمت العقود المدببة واستعمل الجص فى الزخارف التى مازالت . وكان بالجامع الرواق الجنوبى الشرقى ليكون رواق القبلة وزخارف الأروقة وبطون العقود وحول النوافذ كلها جصية . وبالجامع صحن فسيح جدا ومربع حوله عقود وأعمدة وفى قبالة رواق القبلة يوجد الرواق الشمالى الغربى وبه نوافذ معقودة بعقود مدببة وكانت أسقف

الأروقة من الخشـب . وبرواق القبلة يوجد المحراب الذى شـيد السلطان لاجين (لاشين) المملوكى فوقه قبة اقامها عام ١٢٩٦ م .

وكان بالجامع فوارة رخامية مسـقوفة للوضـوء الا أن قبة فوق المضياة قد بنيت وسـط صحن الجامع وهو يشبه القلعة من الخارج .

ويعتبر هذا الجامع نقطة تحول فى العمارة الاسـلامية بطرازه وطراز مئذنته والمواد التى بنى بها الجامع وهى الآجـر والرماد والجير . وجدران الجامع الداخلية كسـيت بالفسيفساء وارضـيته من البلاط المرمر فوقها الحصـر والسجاجيد وأعلى البوائك كتب القرآن بالكامل بحروف الذهب فوق الأفريز . فوقه أفريز ثان عليه زخارف مفرغة . والجامع حاليا يعتبر من الجوامع الأثرية بالقاهرة ومازال على حالته بعد التجديدات والتحسينات التى اجريت له .

لكن القطائع والعسـكر قد لحق بهما الخراب ولا سـيما فى القرن ١١ . وكان قد أقيم سـور على الطريق بين القاهرة من عند باب زويلة الى الفسـطاط ليحجب خلفه خرائب هاتين المدينتين وحتى لا يراها الخليفة عندما يتوجه بموكبه لصـلاة الجمعة اليتيمة فى جامع الفسـطاط .

(٦)

العاصمــة الرابعــة

قامت الفســطاط لتكون عاصــمة ولاية وقامت العســكر لتكون عاصــمة اقطاعية مصــر وقامت القطائع لتكون عاصمة للدولة الطولونية . لكن قاهرة المعز قامت لتكون عاصــمة خــلافة مســتقلة . وهذه العواصــم الأربعة قامت غرب المقطم الذى كان ســدا منيعا أمامها . وفى الغرب النيل . وبين هذين اللسانين أحدهما جبل خلفه صــحراء والثانى نهر خلفه المزارع والخضــرة فالشــرق صفرة باهتة والغرب خضرة متدرجة الألوان والظلال . واذا كان الفيضــان يغمر الشــريط الغربى من القاهرة الكبرى فان المقطم كان يغمر القاهرة بالســيول شــتاء والأتربة . كما أن الصــحراء الغربية فيما وراء النهر كانت تغمرها بالرمال فى الخماســين .

فالفســطاط والعســكر بنيتا حول جامع لكل منهما . لكن القطائع بنيت حول ميدان الرماية وحديقة . أما القاهرة فبنيت وبقلبها قصــر الخــلافة . فالجامع الطولونى كان جنوب غرب القطائع وجامع الأزهر كان جنوب شــرق القاهرة المعزية . وكان إبان عصــر الفتح ، الجنــود لا تســكن المدن لكن تســكن

معســكرات ، هى مدن عسكرية . وكانت البصــرة والكوفة فى الأصل مدينتين عســكريتين . وكانت المدينة العســكرية عبارة عن جامع بجانبه امارة الجند وحولها مضــاربهم . وهكذا كانت الفسطاط والعســكر . لكن القطائع كانت دار الامارة فى الشرق فوق تل من هضــبة المقطم والجامع فى الغرب فوق جبل يشكر وبينهما المدينة الطولونية . والقاهرة كان القصــــر فى قلبها وجامعها الأزهر على طرفها الجنوبى الشــرقى . كما أن قلعــة صــلاح الدين تعتبر مدينة حصينة عســكرية . أقيمت فوق جبل وهى تعتبر مدينة اســلامية لأن بها الجامع ودار الامارة والجند الا أنها مســورة .

والفســطاط والعســكر والقطائع كانت مدنا بلا أســوار الا أن القاهرة منذ أول ميلادها شــرع ببناء السور لها . فأصبحت مدينة قصــرية . أقيمت بعد انشاء الفسطاط بثلاثة قرون .

وكان جوهر الصــقلى بانى القاهرة المعزية وقائد الحملة الفاطمية على مصــر قد تقيد بما اختطه المعز لهذه المدينة قبــل أن يغادر القيروان الى مصــر . وقد اختير موضــعها فوق سهل رملى شــبه منحدر من الشــرق للغرب وأوصــاه أن يســمى هذه المدينة الجديدة المنصورية .

ولما نزل جوهر بقواته شــمال القطــائع الثلاثاء ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ/٧ يوليو ٩٦٩ م قام فى نفس الليلة بتخطيط المدينة وعمل على وضــع حجر اساس قاعدة ملك المعز . وشــرع فى وضع الســور وكلف المنجمين المغاربة الذين أحضرهم معه لتحديد ساعة سعد عند البدء فى البناء ويقول ابن ظهيرة فى (محاسنه) : لما قصــد فى بناء الســور جمــع المنجمين وأمرهم أن يختاروا

طالعا لحفر أســاس وطالعا لرمى حجارته (طوبه) فجعلوا قوائم خشـب بين كل قائمين حبل فيه أجراس وأعلموا البنائين أن ســاعة تحريك الأجراس ترمون بأيديكم من الطين والحجارة . فوقف المنجمون لتحرير هذه الســاعة . فاتفق أن وقع غراب على خشـبة من تلك الأخشــاب فتحركت الأجراس . فظن الموكلون بالبناء أن المنجمين قد حــركوها . فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة فى الأســاس . فصــاح المنجمون : لا . لا القاهر فى الطالع . فمضى ذلك وخاب ما قصـــدوه . وكان الغـرض أن يختاروا طالعا لا يخرج البلد عن نسـلهم وعقبهم . فوقع أن المريخ كان فى الطالع وهو يسمى عند المنجمين القاهر .

ولما أتى المعز مصـر عام ٩٧٢ م وسـمع القصـة فغير اسـم المنصـورية الى القاهرة لكنه تطير عند سماعها .

ويعتبر على مبارك فى خططه التوفيقية من أكثر الذين حققوا تخطيط مدينة القاهرة المعزية . حقيقة اســتعان بما كتبه المؤرخون الأوائل ومن بينهم المقريزى الا انه تميز بأنه حقق ودقق أســماء الأماكن وأرجع الأســماء الحديثة لشــوارعها ومبانيها الى أصولها وأسمائها القديمة فاستطاع تكوين صورة بينة وكاملة عن القاهرة أيام الفاطميين منذ أكثر من ألف عام .

لقد بين أن مســاحة المدينــة كانت ٣١٥ فدان . وكان ســورها من الطوب اللبن ومربع الشــكل وكانت زواياه باتجاه الجهات الأصــلية الأربعة . وكان هذا الســور يفصــل القاهرة الجديدة عن الفسطاط والقطائع . وكان فى شــماله خندقان متتاليان عرض كل منهما ١٠ ذراع وعمقه ١٠ ذراع وكان خليج أمير المؤمنين غرب الســور ويبعد عنه ٣٠ مترا .

وبالمدينة بنى قصران هما القصر الشرقى المسمى بالكبير وكان مقر الخلافة والحكومة والدواوين ومساحته كانت خمس مساحة القاهرة أى ٦٣ فدان . وكان واجهته من الشمال للجنوب طولها ٧٥٠ مترا وعرضها ٣٥٠ مترا . ومكان هذا القصر حاليا جامع الحسين وبيت القاضى وخان الخليلى ويمتد شمالا حتى الجامع الأقمر بأول شارع أمير الجيوش (مرجوش) ويمتد جنوبا حتى يصل الى شارع الصنادقية مكان شارع الغورية .

وكان للقصر عدة أبواب اشهرها باب الذهب وكان فى غربى القصر باتجاه مستشفى قلاوون حاليا وكان يطل على ساحة بين القصرين . وشمال القصر كان يوجد باب الريح وباب العيد ويطلان على فضاء متسع وكان يطلق عليه رحبة العيد ومازال اسمها حتى الآن بالجمالية وتمتد من شارع الجمالية حتى الجامع الأقمر . وكان الخلفاء يخرجون من باب العيد الى باب القصر حيث كان يصلى العيد وكان الخلفاء الفاطميون يؤدون فيها صلاة العيد . وكان فى الجهة الشرقية للقصر يوجد باب قصر الشوك حيث كان يوجد هذا القصر وهذا الباب مجاور لمسجد الحسين فى حارة القزازين المتفرعة من شارع ام الغلام .

وجنوب القصر كان يوجد باب الديلم (من الترك) ومكانه حاليا الباب الأخضر بمسجد الحسين والباب الثانى على يسار الباب الأول وكان يسمى باب الزعفران وكان يؤدى الى مقابر الفاطميين ومكانه حاليا خان الخليلى . وفى جنوب غربى القصر كان يوجد باب الزفر حيث كان يدخل منه الطعام به من المطبخ الذى كان مكانه حاليا الصاغة بين خان الخليلى والسكة الجديدة . وكان يطلق على هذا الباب أيضا باب الزهومة .

ويوجد فى القصـــر الشـــرقى أيضا ايوان قاعة العرش وكان بها ســـرير الملك وهو من الذهب الخالص وعليه مرتبة الخليفة الموشـــاة بالذهب . وكانت جدران القاعة مغطاة بستر حريرية موشـــاة بالذهب والأرض فرشـــت بأبسطة من الحرير . وكان يتفرع من قاعة العرش دهليز يؤدى الى أبواب القصـــر . وكان الخليفة يركب فرســـه المطهم من على باب الايوان ويسير بالدهليز فوق أبســـطة الحرير حتى يخرج من الباب .

وكان دواوين الخلافة ملحقة بقاعة العرش وكانت توجد مكتبة كبرى وضـــخمة وخزانة الكســـوة وخزانة الشـــراب (صيدلية) ومخازن الأســـلحة والأطعمة وتجهيزات الخيول والخيام . وكان به دواوين لكبار الحاشـــية والقواد كل حســـب عمله . وابرز هذه الدواوين كان ديوان الانشـــاء . وجنوب هذا القصـــر بنى الجامع الأزهر وكان يفصله عنه ميدان .

والقصـــر الثانى كان القصـــر الغربى وهو أصـــغر حجما وقد شـــيد بجوار جنينة كافور وكانت مســـاحتها ٣٥ فـــدان ومســـاحة القصـــر ٣٠ فدان وكانت ملاصقة السور .

وكان عرض القصـــر ٢٥٧ مترا وطوله حتى الخليج ٤٦٥ مترا . وعلى شـــماله كان يوجد ميدان وكان باب التبابين يفتح عليه ومكانه حاليا شـــارع الخرنفش وكان الميدان أصـــلا اسمه ميدان الخرنفش وســـبب هذه التســـمية أنه كان مبلطا بالحجر المدكوك وهو حجر محترق كان يطلق عليه الخرنفش أو الخرشتف وكان بســـتان كافور يقع غرب القصـــر ومكانه جامع الشعرانى والســـكة الجديده وكان يمتد شـــرقا للنحاســـين . ويطل القصر على الخليج وجنينة كافور غربا وكان يطل شـــرقا على ســـاحة بين القصـــورين . وكان ملحقا بالقصـــر الحمام (حاليا مكانه حمام

النحاسين) بين مستشفى قلاوون والصاغة . وكان الخليفة يعيش فى القصر بين الحريم وكان مقسما لعدة أجنحة . وكان اسطبل الخيول جنوب جنينة كافور وكان يطلق عليه اسطبل الجميزة . وأيام الخليفة العزيز بالله شيد قصر الذهب والديوان الكبير ومنظرة اللؤلؤة وكان قد أقيم عشرة قصور أطلق عليها جميعا القصور الزاهرة .

وكان قصر الذهب به قاعتين . قاعة الذهب وكانت قاعة العرش أيام العزيز بالله وقاعة الفضة للاستقبالات . وكانت قاعة العرش قد كسيت جدرانها بالذهب والعرش كان من الذهب الخالص المرصع بالجواهر لأن العزيز كان مولعا بها . وكان العرش فوق منصة من الذهب الخالص حولها أشجار النخيل من الذهب ومثقلة بالفواكه والأزهار من الأحجار الكريمة وفوقها تماثيل طيور من الذهب ومزخرفة بالمينا .

وكان خليج أمير المؤمنين غرب السور الغربى للمدينة وكان يعتبر خندقا ثالثا لها . وكان بالسور الغربى باب القنطرة الذى يؤدى الى قنطرة الخليج . ومن هذا الباب كان يخرج جوهر القائد وجنوده لمحاربة القرامطة الذين كانوا يغيرون على معسكراته اثناء بناء المدينة .

والقاهرة المعزية كان طولها من الشرق للغرب خلف السور ١١٠٠ متر ومن الشمال للجنوب ١٢٠٠ متر . وكانت أبواب السور هما باب النصر وباب الفتوح وفى الجانب الجنوبى كان باب زويلة وبالشرق كان باب القراطين (المحروقين) وباب البرقية (الغريب) بالدراسة حاليا . وكان فى السور الغربى باب سعادة مكان مديرية الأمن الآن . وكان باب زويلة الأيسر مكروها لأنه كان ينفذ عنده الاعدام .

وكان حراسة هذه القصور نحدها مائة من الفرسان على باب الذهب وبعد صلاة العشاء بالقصر الشرقى كان ينفخ فى البوق وتقرع الطبول والموسيقى لمدة ساعة ، ثم يغلق الباب . ويعين حراس طوال الليل وتمد سلسلة لغلق ساحة بين القصرين ويمنع اى شخص من المرور . وفى الصباح ينفخ فى البوق اعلانا عن يوم جديد . وكان يعقد مجلس الخليفة بقاعة العرش للأمراء والعلماء وكبار رجال الحاشية مرتين اسبوعيا ثم انتقلت هذه الاجتماعات الى قصر الذهب فى عصر الحاكم بأمر الله .

وأيام المستنصر اقام وزيره بدر الدين الجمالى سورا ثانيا حول القاهرة واصبحت مساحتها ٤٠٠ فدان وأقام شارعا من باب الفتوح الى الجنوب وأقام أبواب النصر والفتوح فى الشمال وباب زويلة (بوابة المتولى) بالجنوب . وهذه الأبواب غير ابواب القاهرة المعزية وباب الشعرية بالغرب والذى سمى نسبة الى قبائل بنى الشعرية وباب زويلة نسبة الى قبائل زويلة وهذه القبائل من البربر بشمال افريقيا .

وكانت القاهرة المعزية مكونة من عدة حارات اطلق عليها أسماء القبائل والقواد الروم الذين جاءوا مع المعز وفى جيش جوهر . فأطلق على الحارات أسماء القواد سعادة بن حيان الصقلى حيث أطلق اسمه على حى سعادة وكان بجواره باب سعادة وريدان الصقلى أطلق اسمه على حى الريدانية وعطوف على حارة العطوف عند باب النصر وجودر الصقلى على حارة الجودرية قرب الأزهر والحسن يانس على حارة اليانس .

أما حارات القبائل التى كان يسكنها جنود كل قبيلة فمنها حارة زويلة (حارة اليهود حاليا) وحارة الروم الجنوبية بالغورية

وكان يسكنها الصقالبة وحارة الروم الشمالية وكان يطلق عليها حارة الروم الجوانية)(حاليا بشارع الجمالية) وحارة البرقية وكان يسكنها جنود برقة (بشرق الحسين) وحارة كتامة (حاليا حارة الدوداری) وحارة الديلم (بجوار مسجد الفكهانى) وكان الوزير يوسف بن كليس يسكن حارة الوزير .

أما حى الباطنية بالأزهر فقد كان يطلق عليه الباطلية وأصل التسمية أن جنودا كان يقطنون الحارة توجهوا الى بيت المال ايام المعز فقيل لهم المال نفد ولم يأخذوا أعطياتهم . فقالوا : رحنا فى الباطل لكن حى الباطنية يقال أن اسمه هذا لم يتغير لأنه كان سكنا لطائفة الباطنية وهى من طوائف الاسماعيلية الفاطمية التى تؤمن بأن للقرآن معانى ظاهرة وباطنة والمعانى الباطنية لا يعرفها سوى الامام فقط للشيعة . وكانوا يسكنون حول الجامع الأزهر لأنه موئل عقيدتهم وقتها .

وكان بالقاهرة المعزية شارع رئيسى يطلق عليه « قصبة القاهرة » وهو يمتد من باب الفتوح الى باب زويلة (بوابة المتولى) وكان هذا الشارع لا يسير فيه راكبا سوى الخليفة فقط على فرسه ، وما عداه كان يسير راجلا . ويسمى هذا الشارع حاليا شارع المعز ، وكان رسل ملوك الروم اذا بلغوا باب الفتوح نزلوا عن خيولهم وساروا بالشارع على أقدامهم . وكانت أبواب القاهرة لا تسمح بدخول أى شخص غريب الا وكان مأذونا له مسبقا بالدخول لهذا أطلق على المدينة القاهرة المحروسة . وكان أى شخص مهما كان يفتش جيدا على الأبواب . وكان باب الفتوح باب المظالم فأى شخص كان له شكوى يقف عند الباب ويستغيث بعفو أمير المؤمنين . فيدخل الى القصر الكبير ويستغيث حتى ولو كان مذنبا فيغيثه المعز .

وشـــارع أمير الجيوش (حاليا يطلق عليه مرجوش) كان يضـــم الجنود المرتاحية والفرحية . وقرب شـــارع أم الغـــلام بالحســـين كان يوجد حارة الصـــالحية وكان بها حراس الوزير الفاطمى صـــــالح زريق . ودرب القزازين كان يســـــمى حارة ملخوية نسبة الى خادم الحاكم بأمر الله .

وكان مسجد الحســـين فى الأصـــل قصر الخلافة الفاطمية وقد دفن فيه رأســـه بعد احضـــارها من عسقلان بفلسطين عام ٥٤٩ هـ/١١٥٤ م أيام الخليفة الفاطمى الفائز .

وكان الجنود المغاربة والســـودانيين يسكنون خارج الأسوار بالمدينة فى شـــمالها وجنوبها بعيدا عن مناطق القصـــور . لهذا كانت حارة الحســـينية يســـكنها العبيد الحسينية وتقع شمال باب الفتوح وعرفت فيما بعد بخط الحسينية أو حى الحسينية .

ومن أهم الانشـــاءات التى أقيمت أيام الفاطميين دار الحكمة (دار العلم) حيث أقامها الحاكم بأمر الله عام ١٠٠٥ م وكانت تـــرق القصـــر الصغير وتطل على ميدان القاهرة (ســـــاحة بين القصـــرين) ولما تولى الأيوبيون هدمت الدار بالكامل وحل محلها درب الخضـــيرى والذى هدمه ســـليمان أغا عام ١٠٤٠ م وبنى مكانه قصره وسبيله ناحية مرجوش بحارة برجوان .

وكانت دار الحكمة قد حمل اليها الحاكم الكتب من القصور والحق بها العلماء والأدباء والشـــعراء . وكانت مؤثثة أحســـن تأثيث وبها قســـم للنســـخ ويقوم بخدمتها عمال مدربون . وكان ينفق على الباحثين ومن بينهم ابن الهيثم وابن يونس المصـــرى . وكانت تنافس بيت الحكمة ببغداد . وفيها وضـــــع ابن الهيثم نظرياته الشـــهيرة فى الضـــوء والبصـــريات وقام ابن يونس

من خلال مرصده بحلوان بوضع الجداول الحاكمية وكان الحاكم قد أقام له مرصدا فوق جبل المقطم . وكان له أبحاثه الرائدة فى الحساب والمثلثات .

وتعرضت دار الحكمة للنهب عام ١٠٦٩ م حيث انتزع الغوغاء أغلفة الكتب الجلدية وصنعوا منها نعالا واستخدموا الأوراق وقودا .

واشتهر العصر الفاطمى باقامة المناظر وكل منظرة كانت قصرا جميلا يرى الخليفة منه ما حوله .وعند الجامع الأزهر كان يوجد منظرة يطل منها المعز عليه فى الاحتفال بليالى الوقود الأربعة فى أول ومنتصف رجب وأول ومنتصف شعبان وكانت تضاء بالتنانير (الثريات) والقناديل والشموع .

وكان على الخليج عدة مناظر تطل عليه وعلى البساتين غربه . فمكان جامع الشعرانى كانت منظرة اللؤلؤة ومكان جامع المغربى فى بين السورين كانت منظرة الغزالة وعند فم الخليج كانت منظرة السكرة وكان الخليفة الفاطمى يشهد منها احتفال كسر السد وافتتاح الخليج أيام الفيضان وكان الخليفة بعد كسر السد يتجه الى منظرة الدكة عند قنطرة الدكة حيث يسقى فرسه من الماء هناك .

وخارج باب الفتوح كان يوجد منظرة العرض العسكرى وكان يجلس بها الخليفة حيث يطل على الجنود وهم متوجهون للقتال من طاقة ويأمرهم بالسفر مع الدعاء لهم بالنصر . وبنى الحاكم بأمر الله منظرة المقسى على النيل قرب ميناء المقس (محطة مصر الآن) وبنى بجوارها جامعه (مكان جامع الفتح) .

وكان الوزير الأفضـــل الجمالى قد أقام مرصـــدا فلكيا فوق جبل الجيوشى قرب الامام الشـــافعى وكان أبوه بدر أمير الجيوش قد بنى عام ١٠٨٥ م جامع الجيوشى . وبجوار المرصـــد أقيم مسجد الرصد عام ٤٧٨ هـ/١٠٨٥ م وأيام المستنصر الفاطمى .

كان الفاطميون منعزلين داخل مدينتهم وكانوا فى دواوينهم يعتمدون على النصارى واليهود وكان الخليفة الفاطمى يتوارى خلف وزيره .

وشـــهدت شـــوارع القاهرة أيام الفاطميين مناحة كربلاء فى يوم عاشـــوراء وهى ذكرى مقتل الحسين حيث كان اتباعهم يســـيرون فى الشـــوارع ويضـــربون أنوفهم بالسيوف ويلطمون الخدود وكان هذا العمل مســـتهجنا من المصـــريين . وقد جاء فريق من الدعاة الذين كانوا يتدربون ويدرسون بالجامع الأزهر . فلقد كان المصـــريون كارهين هؤلاء الفواطم لمذهبهم ولا ســـيما عندما كان يســـب الصـــحابة من فوق المنابر ولا سيما أبا بكر وعمر وعثمان لأنهم فى نظرهم قد سلبوا الخـــلافة من على بن أبى طالب وكان يعقوب بن كلس وزير العزيز يدرس هذا المذهب وكان يهودى الأصـــل وجعل كل المســـاجد فى مصـــر يلقى بها الفقه الشيعى الاســـماعيلى الا أنه كان منبوذا من المصريين أهل السنة ولا سيما بعد ما غير الفاطميون صيغة الآذان .

وشـــهدت القاهرة المعزية الحاكم بأمر الله الخليفة وكان يعانى من الانفصـــامية فى شـــخصيته فيروى شمس الدين الذهبى انه مر يوما بحمام الذهب بالفســـطاط فســـمع ضجيج النســـوة وهن فى الحمام فأمر بأن يســـد عليهن باب الحمام بالحجر الفصى حتى مات الجميع ومنع الناس من أكل الزبيب والعســـل الأسود ومنع زراعة الملوخية والقرع والترمس وأكل الســـمك الذى لا قشر

له كالقراميط وفرض على الناس اغلاق حوانيتهم نهارا وفتحها ليلا .

وكتب السباب للصحابة على أبواب المساجد وأبطل صلاة التراويح برمضان وادعى الربوبية . فعند ما كان يمر بالأسواق يقف الناس ويهتفون : يا واحد يا أحد يا محيى يا مميت .

وبعد مرور ١٢٠ سنة على انشاء القاهرة أقام بدر الجمالى السور الثانى للمدينة وأقام به أبواب جديدة بناها بالحجارة وهى باب النصر والفتوح وزويلة (بوابة المتولى) الا أن بقية السور كان من الطوب اللبن وتعتبر هذه الأبواب الثلاثة التى مازالت حتى الآن سمة للعمارة العسكرية لأنها توحى بأنها قلاع وليست أبوابا .

وكان تولية بدر الدين الجمالى للوزارة أيام المستنصر بالله الفاطمى . وكان خليفة مستهتر وخليفة حكم مصر ٦٠ سنة ، فلما ثار ضده جنوده وعاشوا بالقاهرة افسادا ونهبا للقصور الفاطمية والمكتبة وبيت الحكمة . فاستدعى المستنصر الجمالى صاحب دمشق وعينه وزيره . ولما قدم للقاهرة دعا القواد الترك لمأدبة بقصر الخليفة وجعل جنوده يقطعون رؤوسهم أثناء تناولهم الطعام والقى بها فى بئر القصر . ويعتبر الجمالى من أكفأ وزراء الخلافة الفاطمية رغم أنه كان سنى المذهب عكس الدولة الفاطمية فقد كانت توجهاتها شيعية المذهب .

وختم الفاطميون عصرهم بمجىء الصليبيين الى المشرق العربى واستيلائهم على القدس عام ١٠٩٩ أيام المستعلى وكانت تابعة للخلافة الفاطمية ، وأيام الآمر الفاطمى واصل

الصليبيون استيلاءهم على عكـا وطرابلس ووصلوا الى العريش وكان الآمر لا يفيق من الخمر وهذا ما جعله يكفــر عن سيئاتـــه ببناء الجامع الأقمر عند ســوق مرجوش الا أنه قتل وهو سكران .

وآخر خلفاء الدولة الفاطمية هو العاضـــد وكان شخصية ضـــعيفة ولما وصـــل الصـــليبيون للقاهرة أحرق الفســـطاط وأرســـل شـــعور نســـائه الى نور الدين بن زنكى بدمشـــق يســـتصرخه فأرســـل له جيشـــا بقيادة أسد الدين بن شيركوه وكان معه ابن أخيه صـــلاح الدين الذى خلف عمه فى الوزارة وأرســـل له صـــاحب دمشق بأن يقطع الخطبة عن الفاطميين ويعين عوده مصر للخلافـــة العباسية وبهـــذا أســـدل الستار على الخلافة الفاطمية وهرطقتها الشيعية .

(٧)

قاهـــرة الأيـوبيين

حقيقة تقال أن قاهرة المعــز ولدت كعاصـــــمة لها ثقلها السـياسى لأنها كانت عاصـمة خلافة . وأيام الأيوبيين والمماليك كانت عاصــمة ســلطنة حكمت مصر والشام وفلسطين والحجاز . وكانت حدودها الشـرقية تصـل الى شـمال الفرات بالعراق وحدود الامبراطورية البيزنطية . وهذه الحدود السـياسية لمصر هى تركة الطولونيين . وفى عصـر السـلطنة شهدت القاهرة سلاطين عظاما وسـلاطين ضـعافا . الا أنها ظلت أكبر عواصم العالم القديم .

ولما تولى صـلاح الدين الأيوبى السـلطنة بالقاهرة أمر ببناء سـور ثالث حول العاصـمة . ويقول ابن الأثير فى تاريخه : لما كانت سنة (٥٧٢ هـ/١١٧٦ م) أمر الملك الناصـر صلاح الدين ابن أيوب ببناء سـور القاهرة بالحجر الفص المنحوت وكان القائم على بنائه الأمـير بهاء الدين قراقوش الخصى الحبشى فأبطل السـور القديم الذى كان قد بناه الأمير جوهر فى أيام المعـز الفاطمى .

وقال ابن الأثير : ان دور (محيط) السور الذى بناه صلاح الدين يبلغ ٢٩ الف ذراع (طولا) وجعل عليه الأبواب المصفحة بالحديد .

وكان بالسور الجديد ١٥ بابا غير الأبواب الصغيرة . وكان باب زويلة يطلق عليه باب الفاضل الذى قد بناه .

وكان الأمير بهاء الدين قراقوش المنوط به اقامة سور القاهرة والقلعة من أكفأ قواد صلاح الدين العظام . وكان مهندسا بارعا الا أن سيرته فى الأدب الشعبى تشوه صورته حتى أصبح شخصية أسطورية هزلية وهذه الملامح الشخصية الزائفة عن قراقوش قد لفقها الأديب ابن مماتى فى كتابه (الفاشوش فى حكم قراقوش) . وكان هذا الكتاب موجه لصلاح الدين للتخلص من قراقوش وزيره المخلص الكفء فقال فى مقدمته : اننى لما رأيت عقل قراقوش مخرمة فاشوش قد أتلف الأمة .. لا يقتدى بعالم ولا يعرف المظلوم من الظالم .. ولا يهتدى لمن صدق . ويشتط اشتياط الشيطان ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان .

لكن هذا اللغط الأدبى لم يؤثر فى نظرة السلطان صلاح الدين لموضع ثقته وأقرب الناس اليه . وكان ما أخذ على قراقوش قصة المكتبة الفاطمية التى كانت بقصر الخلافة . فلقد رأى بايعاز من البعض أن هذه المكتبة قد عاش فيها العشة وأشير عليه بتهوية كتبها فوق أرضية المكتبة . لكن هذا القول كان للايقاع بقراقوش وخلط الكتب المفهرسة بعناية . وقام دلالو الكتب بخلط الكتب فيما بينها مما يجعلهم يشترونها بأبخس الأثمان . وكانوا يعرفون كيف يجمعون مجلدات كل مجموعة . الا أنهم أوعزوا لقراقوش أن أجزاء من هذه المجموعات مفقودة لهذا الغرض

الا انهم كانوا على بينة أن المجموعات كاملة ويمكنهم تجميعها بعد شـرائها . وأوحوا الى قراقوش أن هذه الكتب معظمها كتب الشـيعة وعقائد الاسـماعيلية الفاطمية الهدامة . وكانت سياسة صـلاح الدين القضـاء على البدع والهرطقة الفاطمية التى سادت العصـر الفاطمى . فاستأذن قراقوش السلطان لبيعها فاشتراها تجار الكتب . وكانت هذه المكتبة من أكبر المكتبات بالعـالم وكانت تحتل أربعين حجرة بالقصـر الكبير وبها مليون وسـتمائة الف مجلد تضم ١٠٠ الف موضـوع فى شـتى العلوم العربية . وكان بها ٢٤٠٠ نسـخة ملونة القرآن . وكان القاضى الفاضـل قد اشـترى مائة ألف مجلد من هذه المكتبة وأنشأ بها مكتبة مدرسته الفاضلية .

وكانت هذه المكتبة الكبرى التى بيعت مجلداتها قد تعرضت للنهب والتخريب أيام المسـتنصر بالله عام ١٠٦٩ بعد قرن من انشـائها .

وبعد سـقوط الخلافة الفاطمية الشيعية أعلن صـلاح الدين مذهب الامام الشـافعى الذى ظل سـائدا حتى مجىء العثمانيين الأحناف . وكان السـلطان صـلاح الدين قد غير من ملامح القاهرة وسـلبها سـماتها الفاطمية ولا سيما بعدما أمر ببناء قلعته لتكون مقر السـلطنة وسـكنه . لهذا فتح القاهرة المعزية لتكون مدينة سـكنية للشـعب واقام بها البيمارستان وكان قصرا به الأسـرة وصيدلية ويقدم فيه العلاج والغذاء للمرضى . وكان يفصـل جناح النسـاء عن الرجال مقاصـير عليها شـبابيك الحديد كما يقول ابن جبير : اتخذت محابس للمجانين ولهم من يتفقد فى كل يوم أحوالهم . وكان صـلاح الدين يتفقد بيمارستان بصفة دوريـة .

وأهم ما يتميز به عصـــر الأيوبيين بناء القلعة التى أصبحت سمة القاهرة حتى اليوم . فعندما تولى صـــلاح الدين السلطنة لم يترك دار الوزارة التى كان الأفضـــل الجمالى قد بناها له . وكانت تقع بشـــمال القصـــر الفاطمى الكبير ومكانها حاليا المبيضة بشـــارع الجمالية . وســـكنها بقية الســـــلاطين الذين خلفوا صـــلاح الدين حتى انتقل الســـلطان الكامل الى القلعة وجعلها ديوان مصـــر ومقر الســـلطنة حتى أن أقام الخديوى اسماعيل قصـــر عابدين عام ١٨٥٠ ونقل به الدواوين الخديوية .

وقد أخذ صـــلاح الدين فكرة القلعة وهيئتها من القـــلاع الشـــامية التى بناها الصليبيون فوق التلال . فقام صـــلاح الدين مع وزيره قراقوش بتعليق قطعة لحم بالقاهرة فتغير بعد يوم وليلة وعلق قطعة لحم أخرى فى موضـــع القلعة على ارتفاع ٢٥٠ مترا فلم يتغير الا بعد يومين وليلتين .

وكان الهدف من بناء القلعة ليكون بها قصـــر السلطان بعيدا عن أى هجوم مفاجىء يقوم به فلول الفاطميين وعمـــلاؤهم من الاسماعيليين الحشاشين السفاحين بالشام . كما أن القاهرة قد ضـــاقت بســـكانها ولا سيما أنها قد أخذت تزحف جنوبا حتى بلغت حدود الفســـطاط وتعدت غربا خليج أمير المؤمنين واصبحت بولاق ميناءها . كما أن صـــلاح الدين أراد أن يكون حوله جنوده فى معســـكر لهم وهذا لا يتحقق الا من خلال طباق قلعة .

ففى عام ٥٧٢ هـ/١١٧٧ م كلف الأمير قراقوش ببناء قلعة الجبل فوق بروز بجبل المقطـــم . وفرغ من البناء عام ٦١٤ هـ / ١٢٠٧ م أيام السلطان الكامل .

وقام قراقوش بحفر بئر للقلعة ترفع منه ســـاقية يدبرها البقر وكانت مياهه عذبة الا أنه لما عمقه أصـــبح ماؤه مالحا .

وكانت القلعة مبانيها مزينة بالرخام وأبوابها مذهبة ونوافذها مزخرفة . وتطل على القاهرة والفسطاط وعين شمس ويمكن رؤية الاهرامات والنيل منها . وكان الصعود اليها عن طريق سلالم متدرجة وكان يمكن للدواب الصعود فوقها . وداخل أسوارها قصر السلطان واسطبلات للخيول والزرافات وبعض الحيوانات . وكان بالقلعة عدة سجون سفلية يطلق عليها البئر (الجب) وكانت هذه السجون مظلمة . وأمام القلعة ميدان الرميلة كان يقوم به الفرسان بتدريباتهم العسكرية وكان يصل القلعة بالنيل مجرى العيون الذى مازال جزء منه موجودا حتى الآن قرب عين الصيرة . وكانت المياه ترفع له بواسطة السواقى علاوة على وجود بئر يوسف بداخلها ليمدها بالماء أثناء الحصار وكان يطلق على القلعة الجبل نسبة الى جبل المقطم .

وكان الماء يصل القاهرة عن طريق السقائين وكان بها الأسبلة التى كانت تقدم المياه بالمجان وكان السقاؤن يملئون خزاناتها وكان معينا لها عمال لتنظيفها وينفق على هذه الأسبلة من حبوس الأوقاف التى كانت مخصصة للانفاق عليها .

وأيام العزيز عثمان ابن صلاح الدين تفشى الظلم والضرائب وكان يتجاهر بالمعاصى وشرب الخمر علانية وأقام بيوت الدعارة وحماها وأشاع أماكن الحشيش وكان يحصل الضرائب من الدعارة والحشيش لهذا حمى هذا الفساد فى نظير الجعل كما يقول ابن اياس وكان يقدم للسلطان نفسه . وكان يطلق على دور الدعارة المزارة وكانت منتشرة بمنطقة قلعة الكبش بالغور .

وأيام العادل أخ صلاح الدين حدثت مجاعة عام ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م . بسبب نقصان النيل لمدة ثلاث سنوات متتالية

ويقول ابن اياس : فاضطربت أحوال الديار المصرية وأكلت الناس بعضها بعضا . وعدمت الأقوات فى سائر أعمال مصر (القاهرة) فصار الناس من شدة الجوع يأكلون القطط والكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال حتى ما بقى بمصر دابة .. وصار الرجل يذبح ابن جاره ويأكله ويذبح واده بيده ويأكله من شدة الجوع .. وأعقب هذه المجاعة وباء الطاعون الذى لم يبق ولم يذر .

وفقدت القاهرة فى هذه الشدة كثيرا من الأطباء والقابلات والمغسلات الموتى حيث كانوا يستدعون للمرضى أو الموتى وعندما يدخلون بيتا كانوا يذبحون ويؤكلون بعد طبخ لحومهم .

ولما مات العادل خلفه ابنه الكامل . وفى عهده غزا الصليبيون ميناء دمياط الا أنه تصالح معهم بعد ما حاصرهم هناك . وأنشأ الملك الكامل بالقاهرة المدرسة الكاملية فى بين القصرين وسماها دار الحديث وأقام ضريح الامام الشافعى وبجواره بنى سبيلا . وخلفه ابنه العادل سيف الدين الذى عزله أخوه الصالح نجم الدين بعدما سجنه بالقلعة حتى مات . وكان الملك الصالح قد استكثر من شراء المماليك وكثفهم بالقاهرة حتى ضاقت بهم . وكانوا ينهبون المتاجر والأسواق حتى أصبح المصريون يتندرون بهم يوسمونهم بأنهم شر مجلوب . وهذا ما جعل الملك الصالح يسكنهم فى قلعة الروضة وأطلق عليهم المماليك البحرية وكان يطلق على المماليك فى أبراج قلعة صلاح الدين المماليك البرجية . ومنع السلطان نزول المماليك

بالقاهرة . والملك الصالح قد أقام مدينة الصالحية وأنشأ بالقاهرة مدرستى النجمية والصالحية الا أنه فى أواخر أيامه هاجم الصليبيون دمياط . بقيادة لويس التاسع . ويقول ابن اياس : فلما تحقق الملك الصالح ذلك أمر باشهار النداء فى مصر والقاهرة بأن النفير عام ولا يتأخر صغير ولا كبير فان العدو قد استولى على البلاد .. فخرج الناس قاطبة وسائر الأمراء وخرج الملك فى محفة فانه كان مريضا على غير استواء .

ودارت المعارك والسلطان كل يوم يزداد مرضه حتى يئس الأطباء من شفائه . ومات الملك الصالح بالمنصورة (فحمل السلطان بعد أن مات فى زورق تحت الليل وجىء به الى قلعة الروضة . ويصف ابن اياس : ولم يشعر أحد من الناس بموته . فكانت المراسيم تخرج كل يوم بعلامة السلطان . فلا يشك من يراها أنها ليست بخط السلطان الصالح . وكان الأمراء يجتمعون فى المركب ويظهرون أن السلطان مريض . وكانت الأطباء تدخل على جارى العادة فى كل يوم وكان طبق المزاور (الطعام) يدخل فى كل يوم ويخرج على جارى العادة .

كل هذا والمعركة دائرة على أشدها بين الصليبيين والمماليك الأيوبية . وكان لشجرة الدر الفضل فى أنها تماسكت وقامت بهذا الدور المصيرى وأتقنت تمثيلية مرض السلطان مع الأمير حسام الدين لاجين والأمير فارس الدين اقطاى . وتكتموا خبر موت السلطان حتى لا تنهار القوات فى جبهتها وفى القتال ، وحتى

لا يطمع الصليبيون فى مواصلة الزحف للقاهرة . وأرسلوا خفية لابنه توران شاه ليحضر للأهمية القصوى وكان طلبه موقعا عليه باسم السلطان ، فأحضر مع عساكره الأكراد من حصن كيفا الى المنصورة وعلم بوفاة أبيه ونصب سلطانا .

لقد كان الجميع على ولائهم للسلطان الراحل بما فيهم زوجته شجرة الدر التى جعلت جبهة القتال متماسكة حتى حققت النصر ، وأسر لويس التاسع فى بيت القاضى ابن لقمان .

(٨)

المماليك يحكمون

شهدت مصر والقاهرة الحكم الوراثى ابتداء من الدولة الطولونية . مرورا بدولة الاخشيد والفاطميين والأيوبيين . لكن حكم المماليك الذى بصدد الحديث عنه كان حكما يتسم بنظرية البقاء للأقوى والوصول اليه لمن استطاع سبيلا .

فقد حكم سلاطين المماليك مصر ٢٥٨ عاما من خلال سلطنتين متصلتين الأولى كانت سلطنة المماليك البحرية التى حكمت منذ ١٢٥٠ م الى ١٣٨٢ م . والسلطنة الثانية حكمت حتى عام ١٥١٨ عندما جاء العثمانيون . أى أن المماليك قد حكموا مصر أكثر من قرنين ونصف .

فمصر حكمها منذ عصر الفتح ٩٨ واليا وأيام بيت طولون ٥ أمراء ثم خلفهم ١٣ واليا عباسيا أعقبهم ٥ أمراء من بيت الاخشيد و ١١ خليفة فاطميا و ٨ سلاطين أيوبيين . أما فى السلطنة المملوكية الأولى فقد حكمها ٢٤ سلطانا مملوكيا من بينهم ١٢ سلطانا من بيت قلاوون .

أما السلطنة المملوكية الثانية حكمها ١٩ سلطانا من بينهم

الخليفة العباسى المستعين بالله الذى حكم لعدة أيام . ورغم مجىء السلطان العثمانى سليم الأول وقضى على هذه السلطنة الا أن المماليك تكتلوا وقويت شوكتهم واستطاعوا حكم مصر حكما ذاتيا فى القرن ١٨ وظلوا حتى هزمهم نابليون وقضى عليهم محمد على فى مذبحة المماليك عام ١٨١١ . أى أن المماليك ظلوا زهاء قرنين ونصف يحكمون مصر ويضعون سياستها حتى ابان العصر العثمانى .

وهؤلاء المماليك أصلهم من الرقيق الأبيض الجلابة كما كان يسميهم المصريون وهم من القوقاز وبلاد الترك (الأتراك) والتركمانستان . وكان هؤلاء يباعون ليصبحوا جنودا . ولقد استعان بهم الأيوبيون ولا سيما الملك الصالح الذى كثر فى شرائهم واشترى سلاطين المماليك منهم الكثيرين حتى الأمراء المماليك باتوا يشترونهم ليقووا بهم نفوذهم . فكان لكل أمير (وقتئذ) مملوكى مليشياته من هؤلاء المماليك الأرقاء .

وكان من بين سلاطين المماليك حكاما عظاما دافعوا عن الاسلام وحموا دياره بمصر والشام . وكان الرعيل الأول منهم محاربين أشداء انتصروا على الصليبيين فى دمياط وحرروا فلسطين والشام من هؤلاء الفرنجة وردوا التتار على أعقابهم فى عين جالوت . وكان أغلبهم سلاطين ضعافا لم يصمدوا أمام مماليكهم فخلعوا أو عزلوا أو قتلوا .

وكان نقطة ضعف المماليك أنهم أرقاء لا يحق لهم شرعا ولاية الأحرار ولم يكن من بين هؤلاء السلاطين معتوق سوى شجرة الدر التى كانت حرة بعدما كانت جارية للملك الصالح الا أنه عتقها بعدما أنجبت له ولده خليل فتزوجها بعده .

وعندما تسلطن المماليك عارضهم قبائل العرب بالشرقية

والبحيرة والصـــعيد مطالبين بالملك حســـب مقولة الخلافة فى قريش . وهذه القبائل قد وفدت مع الفتح الاســـلامى . كما ان الأيوبيين كانوا يطالبون بالســـــطنة لأنها ارثهم وما يشــفع لهم انهم عـــرب أكراد . والحـــزب الثالث كان ممثلا فى الشـــيعة الفاطميين وكانوا قد تواروا خلف تقيتهم لأن العصـــر لم يصبح عصـــرهم الا أنهم كانوا وراء الفتن فى مصـــر والشـــام وفلسطين ولا سيما عندما تحالف الحشـــــاشون جناحهم العســـكرى مع الصليبيين ضد المسلمين هناك .

ومصـــر والمصـــريون منذ عصر الفراعنة وحتى ثورة يوليو ١٩٥٢ كانت تحكم حكما أجنبيا . لهذا لم يشـــاركوا فى حكم بلادهم حتى الجيش لم يلتحقوا به لأن الحكام عزلوهم عنه حتى لا يثوروا عليهم . وأول من جندهم محمد على فى مطلع القرن قبل الماضى .

فالشـــعب المصـــرى فى نظر حكامه كان رعية تعمل فى الأرض ســـخرة وتدفع المغارم والضـــرائب وتقدم الخراج للمخازن الملكية أو الســـلطانية . وهذا الاقطاع العسكرى بلغ مداه فى الروك السلطانى فى عصر المماليك .

وكانت خزائن مصر منذ الأيوبيين تنفق على رواتب الجند وشـــراء المماليك وكانت هذه الخزائن خاوية بسبب الحروب ضد الصليبيين بالشـــام فكانت تفرض المغارم على التجار والحرفيين لدفع مرتبات الجنود وشـــراء المماليك ليقوى نفوذ الســـلاطين ويحكمون البلاد بالقهر .

وكان المملوك أول تعيينه يصبح جنديا ثم يترقى ليصـــبح اميرا على مجموعة من المماليك .

ورغم استقلال الســـلاطين المماليك الا انهم ظلوا محافظين على تبعيتهم للخـــلافة العباســـية بالقاهرة التى أحياها الظاهر

بيبرس عام ٦٥٩ هـ/١٢٦١ م بعد سقوط الخلافة الأولى ببغداد . وظلت الخلافة العباسية الثانية قائمة بمصر ٢٥٧ سنة حتى أسقطها السلطان سليم العثمانى عام ١٥١٨ بعد دخوله مصر وسجن آخر خلفائها بالأستانة .

وكان لاحياء الخلافة العباسية بالقاهرة أن جعلها محط أنظار العالم الاسلامى ولا سيما فى المشرق وفى الهند حيث فتح ملوكها بلادهم للتجار المصريين وكانوا يقدمون الهدايا للخلفاء العباسيين بالقاهرة .

لهذا نجد أن مصر والقاهرة منذ الفتح الاسلامى فى القرن السابع ظلتا خاضعتين للخلافة التى تعددت أسماؤها من راشدية وأموية وعباسية وفاطمية وعباسية ثم العثمانية التى أسقطها أتاتورك بتركيا عام ١٩٢٣ . فطوال حوالى ١٣ قرن كانت مصر تحت ظلال خلافة مشرقية أو مصرية أو تركية .

وكانت مهمة الخليفة العباسى بالقاهرة مهمة شرفية واسمية وكان عليه تقليد السلطان المملوكى فيضفى هالة دينية حوله يخفى وراءها رقه لأنه مفوض بالحكم من الخليفة العباسى الذى من آل البيت ، وكان كل سلطان يعلن ظاهريا أنه قسيم أمير المؤمنين العباسى وهذا اللقب ابتدعه الظاهر بيبرس .

وكانت ديار مصر تدار حسب نظرية (الروك السلطانى) وهذا معناه أن كل الأراضى الزراعية كانت ملكا للسلطان والروك كان ٢٤ قيراطا . وكان يقسم عند تولى كل سلطان أيوبى أو مملوكى . فكان للسلطان ٤ قراريط وللأمراء ١٠ قراريط وللجنود ١٠ قراريط . ولم تكن السلطنة بعده تدفع رواتب . وما كان على الفلاحين الا زراعة هذه الأراضى وتسليم غلتها لأصحاب

الروك . وهذا الاقطاع العسكرى كان متبعا أيضا فى الدولة العثمانية فى أول عهدها .

والسلاطين لم يكن عليهم اى واجبات يلتزمون بها أمام الشعب ولم يكن للمصريين اى حقوق لهم تجاه حكامهم . لهذا لم يهتم المماليك بالتعليم او الصحة أو المرافق . وما قام به بعض السلاطين من انشاء جوامع او أسبلة أو مدارس هى انشاءات خاصة انعموا بها .

وقد قسم المقريزى المجتمع المصرى أيام حكم المماليك الى سبعة طبقات اجتماعية وهى طبقة اهل الدولة وهم السلطان والأمراء ويليهم أهل اليسار من التجار والقسم الثالث الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة والقسم الرابع اصحاب الفلح (الفلاحون) وهم أهل الزراعات والحرث سكان القرى والريف والقسم الخامس الفقهاء وهم جل الفقراء (الصوفية) وطلاب العلم والكثير من اجناد الحلقة . والقسم السادس أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن والقسم السابع ذوو الحاجة والمسكنة .

واول حقوق مكتوبة نالها المصريون أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام٧١٦ هـ/١٣١٦ م . وكان الهدف من اصدار مرسومه كبح الظلم واستبداد أمراء المماليك والجنود وقد نص كما يقول (النويرى) فى (الالمام) على اسقاط المكوس على الغلال الواردة لسواحل القاهرة وابطال نصف ضريبة السمسرة عليها ومنع الرسوم الاستثنائية بشتى صورها ولا تجبى أى مبالغ عن الجسور والترع والقنوات وعدم جمع مقررات للجيش والفرسان ورفع ضريبة الملاهى والأفراح وابطال حماية المراكب النهرية وغيرها من الأوامر التنفيذية .

وهذه الوثيقة قد اظهرت واجبات الدولة أمام المحكومين لأول مرة فى مصر .

وشــهدت القاهرة شــجرة الدر أول ســلطانة تحكم مصر فى العصــر الاســلامى . فقد تسلطنت بعد مقتل الملك توران شــاه آخر ســلاطين الأيوبيين وبدأت بتوليها السلطنة المملوكية عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م . وقبل لها الأمراء الأرض من وراء حجاب اعلانا عن خضوعهم لها . وكانت توقع المراسيم باسم أم خليل .

ويقول ان اياس : فلما تم امرها فى السلطنة فرقت الوظائف الســنية على الأمراء وفرقت الاقطاعات (الروك) الثقال على المماليك البحرية . وكان الأمير عز الدين أيبك التركمانى مدير المملكة .

وخطب الخطباء فوق منابر مصــر باسم شــجرة الدر فبعد الدعاء للخليفة العباسى ببغداد كان يقال : واحفظ اللهم الجبهة الصــالحية ملكة المســلمين عصــمة الدنيا والدين ذات الحجاب الجميل والســتر الجليل والدة المرحوم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ولما بلغ الخليفة العباسى المستنصر بالله أن مصــر تولى أمرها شــجرة الدر أرســل رسالة للأمراء المماليك عنفهم فيها قائلا : اذا لم يكن عندكم رجال أرســلنا لكم من يحكمكم . وتخلت شــجرة الدر عن الحكم بعد ثلاث شــهور بعدما تزوجت عز الدين أيبك وكان أول من حكم مصــر من المماليك . لكن حزب المماليك الأيوبيين رفضــوه وطالبوه بعودة الســـلطنة لآل ايوب وكان يتزعمهم الأمير المملوكى أقطاى . فعين الســلطان الأيوبى الأشرف قســيما لأيبك فى السلطنة وكانت خطبة الجمعة باسم السلطانين

المملوكى أيبك والأيوبى الأشــرف . وضــربت النقود (السكة) باسميهما . لكن أيبك انفرد بالسلطنة بعدما قضى على خصومه .

فلقد دبر كمينا بالقلعة للأمير أقطاى وبعدما اغلقت أبوابها عليه قتل . وألقى برأســه من فوق سور القلعة فوق مماليك أقطاى الثائرين . وحاول هؤلاء الهروب من القاهرة الا أن أبوابها كانت موصــدة فتوجه الأمير بيبرس ومماليكه الى باب القراطين وأحرقوه وفروا للشام . وسمى هذا الباب بالباب المحروق .

وكان أيبك قد قوى نفوذه وأخذ ينصرف عــن شجــرة الدر فأمرت خصــيانها فقتلوه بالحمام بالقلعة فشــاع خبر مقتله . وقبض ابنه المنصــور على شــجرة الدر وسلمها الى أمه وأخذ جواريها بضربنها بالقباقيب حتى ماتت وســحبنها من رجلها . ثم قام الخدم بالقائها من فوق السور عريانة وظلت ثلاثة أيام لم تدفن .

وتســلطن الأمير المنصور وكان صبيا عمره ١١ سنة وفى عهده هاجم التتار بغداد وقتلوا الخليفة . فاجتمع الأتابكى قطز بالقضــاة ومشــايخ الأزهر لأن البلاد معرضــة للدمار والخراب من التتار وبيت المال خاو والســلطان صبى . الا أن المجتمعين اصــدروا قرارا بخلعه وجمع الأموال من الشــعب والتجار وتولى قطز الســلطنة . حيث قام بالقبض على الأمراء المنشقين وولى بيبرس أتبك العسكر .

وكانت رســالة قد وصـــلت قطز من هولاكو ملك التتار بعدما أحرق دمشــق جاء فيها : يا أهل مصــر أنتم قوم ضعفاء فصــونوا دماءكم منى . ولا تقاتلونى أبدا فتندموا .

لكن شــعب القاهرة وتجــارها تكتلوا بأموالهم وأنفســهم ومعهم شــعب مصــر وعربان الشــرقية والغربية ليدافعوا عن

بلدهم . وخرج قطز من القلعة واتجه الى عين جالوت وكان انتصار باهر عام ٦٥٨ هـ/١٢٥٩ م وقبل عودته ضم الشـــام وحلب لمصر بعدما كانت فى أيدى الأيوبيين . الا أن قطز عند عودته ظافرا الى مصر قتله الأمير بيبرس عند القرين حيث دفن هناك . وتسلطن بيبرس بطل دمياط وعين جالوت ودخل القاهرة بالليل وطلع قلعة الجبل ، ويقول ابن اياس : فلما طلع النهار نادى المنادى فى مصر والقاهرة (ترحموا على الملك المظفر قطز وادعوا بالنصر للملك الظاهر بيبرس البندقدارى . وعمل الملك بيبرس الموكب بقلعة الجبل وخلع على الأمراء .

وقصة احياء بيبرس الخلافة العباسية بالقاهرة بعد سقوطها فى بغداد عندما حضر شخص من ذرية بنى العباس عام ٦٥٩ هـ .. يقال انه ابن الخليفة الظاهر بأمر الله حفيد المستنصر بالله . ولما علم الظاهر بيبرس بقدومه للمطرية خرج لاستقباله وكان يدعى الامام أحمد العباسى . ولما رآه الملك بيبرس نزل من على فرســـه وتعانقا ثم رتبا موكبا اتجه القاهرة ودخلا من باب النصر وســـط الزينات ، ووصــــل الموكب القلعة . ونزل الأمام فى قاعة الأعمدة . وبعد عدة أيام عقد الملك بيبرس مجلســـا دعا فيه القضاة والمشايخ والأمراء والتجار وحضـــره العربان الذين جاءوا مع الأمام أحمد الذى حضر هذا الاجتماع . وكان الشيخ ابن عز الدين قد حضره .

وطلب تاج الدين الشـــافعى قاضى القضـــاة من العربان الشـــهادة بصـــحة نســـب الأمام أحمد للبيت العباسى . فشهدوا وحكم القاضى بصحة النســـب . وبايع القضـــاة بالخلافة ولقبوه بالمستنصر بالله . وقام الامام بمبايعة الملك بيبرس بالسلطنة وولاه على البلاد الاســـلامية وما سيفتح عليه من بلاد الكفرة وبهذا ردت الخلافة لبنى العباس .

وبعد شهر أقام الملك بيبرس حفلا بالمطرية وقام القاضى ابن لقمان بالصعود فوق المنصة حيث تلا على الأمراء الحاضرين تقليد الخليفة (مرسوم) ونصب لبيبرس السلطنة والبسه خلعة السلطنة وهى جبة سوداء بطوق ذهب وعمامة سوداء بها عذبة ذهب وسيف بداوى . ولبس بيبرس الخلعة وركب فرسه وسار بموكب ضخم للقاهرة ودخلها من باب النصر وكانت الشوارع قد زينت وكان أحدهم يحمل تقليد الخليفة فوق رأسه حتى صعدوا للقلعة .

ويعتبر هذا الخليفة أول خليفة عباسى يبايع الترك (المماليك) فى مصر . وأرسله بيبرس على رأس جيش لبغداد ليستردها من التتار الا أن خبره لا يعرف فلقد انهزمت قوات بيبرس عند الأنبار . ولم يعد له وجود .

الا أن عام ٦٦٠ هـ/١٢٦٢ م وصل الى مصر امام احمد آخر ادعى أنه من آل العباسيين وعقد له الملك بيبرس بالقلعة جلسة لأظهار خلافته ليبايعه بالسلطنة فبايعه القضاة ولقب بالخليفة الحاكم بأمر الله وكان يخطب باسمه فوق المناسر بمصر والشام وهو جد الخلفاء العباسيين الذين تعاقبوا بالقاهرة .

وابطل الظاهر بيبرس الحشيش وأمر بأحراقه وضرب الخمارات وأراق موردها ومنع الخانات من الخواطى (المومسات) كما يقول ابن اياس .

أما السلطان المنصور قلاوون وهو سابع السلاطين المماليك حقق انتصارا عظيما على التتار الذين استولوا على حلب بالشام الا أنه انتصر عليهم فى معركة المرج الأصفر عام ٦٨٠ هـ/١٢٨١ م وعاد الى القاهرة ظافرا وسط احتفالات والسلطان قلاوون مازال بيمارستانه حتى اليوم وكان يسمى

البيمارستان المنصورى وكان قد بناه تكفيرا عن سيئاته عندما أمر عساكره بقتل الناس لأنهم خالفوا أوامره وأخذوا يقتلونهم ثلاثة أيام عمال مع بطال حتى تشفع لهم القضاة ومشايخ الأزهر . فعفا عنهم . فلما ندم بنى هذا المستشفى وأوقف عليه الخيرات .

وأيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان سنجر الشجاعى أحد أمراء المماليك مكروها من الشعب ولما قتل بالقلعة سار بعض المماليك برأسه وطافوا بها فوق رمح بشوارع القاهرة والفسطاط . وكلما مر المشاعلية بها أمام الناس كانوا يعطون الفلوس لهم ويأخذون الرأس الى دورهم ويصفعونها بالقباقيب والنعال تشفيا . وظل المشاعلية يدورون بها ثلاثة أيام تدفع لهم حتى اغتنوا من كثرة الفضة . لأنه كان قاسى القلب .

وأبطل السلطان الناصر فيما أبطله من المغارم ضمان الغوانى وكان جبى أموال على البغاء وكانت الضامنة للنسوة الداعرات أو المغنيات أكبر مصدر ضرائبى للسلطنة . ولو نزل اسم امرأة عند الضامنة لما قدر أكبر من فى مصر منعها عن البغاء أ و الفاحشة . ويقول ابن اياس معلقا : وكان حصل من ذلك لنساء الأكابر وبناتهم غاية فى الفساد ولا يقدر أحد يمنعهم من ذلك .

كانت سلطنة المماليك سلطنة عفنة متسلطة من المغامرين الذين ليس لهم جذور عرقية تربطهم بمصر . لهذا لم يكن همهم سوى تحقيق الأموال وجمعها بأى ثمن . وكان أمراؤهم يعيشون فى قلق لأن مصيرهم كان يعتمد على ولاء أعوانهم لهم . وكان هذا أيضا شعور السلطان نفسه . فها هو السلطان « برقوق » بعد ست سنوات وعدة شهور من تسلطنه يختفى من القلعة لينفذ بجلده ثم يعود للسلطنة بالقوة مرة ثانية .

وكان ابنه الملك فرج سلطانا لمدة ست سنين وعدة شهور عزل وعاد ثانية للسلطنة . الا أنه صفى مماليك أبيه الذين ثاروا عليه . فكان يسكر الى نصف الليل ويخرج لحوش القلعة فيعرض عليه المماليك المسجونون بالأبراج وكان يجعلهم فى صفوف ويذبحون كل واحد على حدة أمامه . ويدوس رأسه بقدمه . فكان بعد هذه المذبحة التى ذبح فيها ٢٠٠٠ مملوك . كان كل يوم يذبح بعدها عشرين مملوكا وكان قد صبر عليهم وسامحهم الا أنهم خانوه وتمردوا عليه .

وقد قتل الملك فرج بأيدى جماعة من الحشاشين بينما كان فى قلعة دمشق . والقوا بجثته فوق كوم زبالة وظل ثلاثة أيام فرجة للناس الى أن دفن .

وكان الخليفة العباسى المستعين بالله مع الملك فرج بدمشق فاعلن توليته السلطنة الملوكية وأحضرت له خلعة السلطنة . وكان المماليك قد طلبوا منه هذا . فأشترط عليهم أنه لو خلع من السلطنة يظل بالخلافة . فوافقوا ودخل المستعين مصر فى موكب عظيم وطلع القلعة وسكن بها بعد ما كان يسكن فى منظرة الكبش . الا أن الأتابك شيخ كان الآمر الناهى . لكن الأتابك شيخ عزل المستعين وتسلطن لكن ظل المستعين بالخلافة سجينا بالقلعة حتى خلعه الملك المؤيد شيخ وعين أخاه داود خليفة . وكان تسلطن المستعن ستة أشهر . وتولى الملك أبو السعادات بعد أبيه الملك المؤيد وكان عمره سنة وثمانية شهور وسبعة أيام ولقب بالمظفر ولما احتفل بتوليه دقت الكئوسات داخل القصر وكان فى حجر مرضعته جالسة على كرسى العرش . فخاف وأخذ يبكى حتى أغمى عليه . ومات بعدها .

وأيام الملك الأشرف اينال قامت فتنة بالقاهرة ضده

وانحاز الخليفة العباسى حمزة لها . فطلبه الأشرف وحضر بين يديه بالقلعة ووبخه . فلم ينطق الخليفة . الا أن الأشرف عزله وسجنه بالاسكندرية .

لكن الخليفة حمزة قال : اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى من الخلافة وخلعت السلطان اينال من السلطنة . وكان قاضى القضاة علم الدين البلقينى حاضرا . فأفتى أن خلع الخيفة للسلطان لا يصح لأن الخليفة قد بدأ بخلع نفسه أولا . ولما خلع السلطان لم يكن خليفة وغير مولى الخلافة . فلا يصح له عزل السلطان .

وكان السلطان الناصر أبو السعادات ابن الأشرف قايتباى طائشا . ففى آخر رمضان أمر أن يكون العيد بالغد حتى ولم ير الهلال . وحاول قاضى القضاة أن يثنيه لكنه عزله . ولم ير الهلال فى تلك الليلة . وأصبح الهلال بعد غد لكن السلطان لم يحضر صلاة العيد ولم يصعد أحد لتهنئته الا أن الخليفة العباسى صعد ولم يقابله وأمره بالانصراف ومن نوادره أنه نادى بالقاهرة بتعليق قناديل على البيوت والحوانيت وكان يسير ليلا مع حرسه بعد العشاء . ولو صادفه شخص بالشارع كان يقطع أذنه وأنفه . وكان يسحل الأشخاص ويسلخ جلودهم وهم أحياء عقابا لهم .

وأمر بتبيض المحلات بالأسواق والشوارع فى يوم وليلة وكان لو رأى امرأة أعجبته كان يدخل بيتها غصبا ويأخذها عنوة مع ضرب زوجها فى وسط بيته . لهذا كانت أفعال هذا السلطان المجنون قد جعلت الأمراء ينصرفون عنه ولا يسمعون كلامه ومن بينهم خاله الأمير قانصوه . الا أنه قتل فى كمين عند باب الوزير وكان سنه ١٧ سنة وخلفه خاله قانصوه (غير قانصوه الغورى) الا أنه خلع .

وكثر فى عصر المماليك الشراكســة عزل الخلفاء واهانتهم وعزل القضــاة . وكان من عادة الســلاطين أثناء وباء الطاعون وما أكثره أنهم يخشــون على أنفسهم فكانوا يخففون من المظالم والمحابيس . وكان ينادى بالأســواق برفع هذه المظالم ولا سيما الأموال المشاهرة التى كان الســلاطين يحصــلونها شــهريا من التجار والأســواق والحوانيت .

وأيام السلطان الغورى أرسل المنادين ليعلنوا أن السلطان قد منع أخذ المكوس على الغــلال بســواحل مصــر العتيقة (الفسطاط) وبولاق .

وكانت هذه المكوس تحصــل على كل أردب قمح أو شعير او فول يباع أو يشــترى فى الســوق . وكان قبله يحصــل نصــف فضــة (عملة) الا أنه زادها لثلاثة أنصــاف فضــة وكان يطلق عليها الموجب ولما أبطلها شــاع الخبر بأن السلطان أبطل المشــاهرة والموجب فأخذت النســوة يزغردن من الطيقات بالبيوت وخلف المشــربيات . وكان الناس ينقطون المشــاعلية عند ســماعهم هذا النداء . وكان الزينى بركات يحصلها عنوة وكان لهذا الســوقة كما يقول ابن اياس . تجور فى أســعار البضــائع ولا يجســر من الناس أحد يكلمهم .

فيقولون : علينا مال السلطان نورده كل شهر .

بعد فتــح الســلطان أحمد الفــاتح عام ١٤٥٣ القسطنطينية انقطعت القوافل التجارية البرية من الصــين والشــرق لأوربا لأن البابا فى روما فرض حصارا اقتصاديا على السلطنة العثمانية .

هذا ما جعل السلطان المملوكى اينــال بالقــاهرة يفتح مصر والشــام لتدفق التجار الأجانب على ســلطنته . ففتح لهــم الوكالات والأســواق والمخــازن وأصبحت أســواق القــاهرة عامره بالســلع من الصــين والهند وفارس . واصبح قصــر

السلطان بالقلعة يموج بالسفراء والتجار الأجانب ولاسيما من جنوة والبندقية وفرنسا ووقع السلطان اينال اتفاقية تجارية مع فرنسا .

وأيام السلطان قايتباى وقع اتفاقية مع سفراء فلورنسا عام ١٤٨٧ فيها تسهيلات وامتيازات تجارية الفلورنسيين . وهذه الاتفاقية اعتبرت أى عقد بين التجار المصريين والفلورنسيين بالبيع يعتبر نهائيا وملزما للطرفين . وسمح السلطان للرعايا الفرنسيين بالوصول للقاهرة واستئناف القضايا أمام السلطان نفسه . وكان الشاكون يصلون القاهرة فى حماية سلطانية لاستئناف الأحكام أو الشكوى أمام السلطان . ولهم حق الوصول للقاهرة فى أى وقت .

وكان السلاطين والأمراء المماليك قد أثروا من ازدهار التجارة العالمية بمصر . وكانت وكالات القاهرة عامرة بالبضائع من الشرق والغرب . وكان ميناء بولاق والفسطاط فى القرن ١٥ ، ١٦ من أهم الموانىء وكانت آلاف السفن ترسو على ساحل القاهرة متوجهة بسلع الشرق للاسكندرية ودمياط ورشيد وكانت القوافل تصل من الشام والسويس . والسفن تصل من قوص تحمل التجارة الأفريقية والهندية والصينية . وكان عمال الجمارك يعملون ٢٤ ساعة (*) .

وظل هذا الرواج الاقتصادى حتى عام ١٤٩٨ عندما اكتشف فاسكودى جاما البرتغالى طريق راس الرجاء الصالح والمحيط الهند لتصبح البرتغال مركز التجارة العالمية بدلا من مصر ومما زاد فى هذا الركود دخول العثمانيين مصر بعدها بعشرين عاما .

(*) أنظر كتاب (أحوال مصر من عصر لعصر) . للمؤلف ، طبعة دار العربى للنشر .

(٩)

الأسـواق

لقد كان أهم ما يميز الفسطاط والقاهرة الأسـواق . ففى العصـر المملوكى كانت القاهرة بها أسـواق شـهيرة . وكان سـوق برجوان من أكبر الأسـواق الحياتية والمعيشية . فكان يباع فيه الخبز واللحوم والعطارة . وبه مطاعم الشـواء والطبخ . وكانت تباع الطيور فى سـوق الدجاجين والفاكهة بدار الفاكهة حيث كانت تباع بالجملة للبياعين . وكانت هذه الأسـواق تقـام فى المناطق السـكنية أو على أطرافها . وكان يوجد سـوق الشـراشبين يباع به السـلع والملابس ولا سـيما ملابس التشـريفة القديمة التى كان أمراء المماليك يبيعونها وكان سـوق الخلعيين (الكانتو) لبيع الملابس المسـتعملة وسـوق الأباريين لبيع الخيوط وسـوق السـلاح وكان فى بين القصـرين تباع فيه الأسلحة بأنواعها والرماح والسهام والطبنجات .

ولما زار ناصر خسرو الفسطـاط وصف سوق القناديل بها أيام العصـر الفاطمى قائلا : لا يعرف سـوق فى مثله فى أى بلد . وفيه كل ما فى العالم من طرائف .. رأيت الأوعيـة والأمشـاط ومقابض السـكاكين . ورأيت أيضـا معلمين مهرة

ينحتون بللورا (نوع من الزجاج النقى الصخرى) غاية فى الجمال · ألطف وأكثر شفافية من بللور المغرب · ورأيت أنياب الفيل من زنجبار وجلد بقر من الحبشة يشبه جلد النمر ويعملون منه النعال وفى العصر الطولونى كانت أسواق القطائع متخصصة من بينها سوق العيارين فيه البزازين والعطارين وسوق الفاميين (الثوم) وفيه الجزارون والبقالون والشوائون (كبابجية) وسوق الطباخين وفيه الصيارف والخبازون والحلوانية .

ولاحظ ناصر خسرو بالقاهرة والفسطاط أن التجار فى مصر كانوا يبيعون بأسعار محددة واذا خالفها التاجر أو غش فيها كانت توقع عليه عقوبة التشهير . كما لاحظ أن البقالين والعطارين وغيرهم كانوا يبيعون بضاعتهم فى أوعية خاصة من الزجاج والخزف والورق (أكياس) . فلا يحتاج المشترى أن يحمل معه وعاء عند الشراء .

وتقول سهام أبو زيد فى (الحسبة فى مصر الاسلامية) تصف شكل الأسواق وأسماءها . فتقول عن القيساريات والخانات بأنها عدة صالات عليها قباب ولها أروقة وفيها مكان للماء . وخانات القاهرة أسواق التجار المزدحمة ويرجع تاريخها الى عصر الفاطميين . وتقول عن الوكالات بأنها أماكن للتجار الشرقيين والأسواق كانت عبارة عن حوانيت وكانت تظلل بالحصر أو السقوف الخشبية . والفنادق والوكالات كانت بنايات واسعة من عدة طوابق وملحقا بها مخازن ولها فناء داخلى به البضائع والدواب . وبها حمام ومخبز ومقبرة وتحاط بسور وحديقة . وكان التجار يضعون أموالهم وبضائعهم بالوكالات وهى فى مأمن لأن عليها حراسة . وكانت الوكالة تضم تجارا من نفس البلد كالمغاربة والشوام واليمنيين والهنود والفرس .

ولكل طائفة أو حرفة كان لها سوقها أو حارتها . وكانت توجد أسواق حول أبواب القاهرة كسوق باب الفتوح وسوق باب الزهومة وسوق بين القصرين .

ومن الأسواق التى وصفها المقريزى سوق الكفتيين وبه عدة حوانيت لعمل الكفت وهو تطعيم أوانى النحاس بالذهب والفضة . وكان النحاس المكفت شائعا فى البيوت . وسوق اللجميين وتصنع به آلات اللجم من الجلد والسروج والأخفاف الجلدية . وسوق الصناديقية وكان يصنع به الأبواب والنوافذ والمنابر والأسرة والدواليب والصناديق وكلها من الخشب . وكانت تتطعم بعض الأخشاب بالعاج والصدف . وصف سوق قصبة القاهرة بأنه عامر بالحوانيت بها أنواع المأكل والمشرب والمتعة .

وكانت أشهر الوكالات فى عصر المقريزى وكالة قوصون حيث كان ينزلها بضائع من الشام كالزيت والصابون والفستق والدبس (عسل) والجوز واللوز والخرنوب .

ويصف المقريزى بقية أسواق القاهرة فيحدثنا عن سوق الشماعين وكان يبيع الفوانيس بأنواعها فى رمضان . وكان يباع به شموع للمواكب والأفراح ويصل وزن الشمعة قنطارا وبعضها عشرة أرطال أو شموع صغيرة . وكانت الشموع الكبيرة تؤجر وتجر على العربات . وسوق الجوخيين لبيع قماش الخوخ (نوع من الصوف) المستورد . ولقد كان يؤثر على حركة هذه الأسواق الأوبئة والمجاعات وعراك المماليك مع بعضهم فآبان الفتن كانت تغلق الحوانيت والأسواق والوكالات أسواقها لتجنب الجلبان كما يقال المقريزى .

وكان يوجد بالأســـواق المخبز لخبز العيش وبيعه فى الأســـواق والحوانيت كما أن الأفران كانت تخبز العجين الذى ترســـله البيوت نظير جعل شهرى .

ولفتت الحمامات بالقاهرة الرحالة فوصفوها .. فعبد اللطيف البغداد الذى زار مصر فى القـــرن ١٢ وقـــد عاصر صـــلاح الدين الأيوبى وصف حمامات القاهرة قائلا : وأما حماماتهم فلم أشاهد فى البلاد اتقن منها وصـــفا ولا أتم حكمة ولا أحسن منظرا ومخبرا . أولا فان أحواضـــها يســـع الواحد منها ما بين راويتين الى أربع راويات وأكثر من ذلك يصـــب فيه ميزابان حار وبارد . وقبل ذلك يصـــبان فى حوض صـــغير جدا مرتفع . فاذا أختلطا فيه جرى منه الى الحوض الكبير . وهذا الحوض نحو ربعه فوق الأرض وســـائره فى عمقها ينزل اليه المســـتحم فيســـتنقع فيه . وداخل الحمام مقاصـــير بأبواب . وفى المشـــلح ايضـــا مقاصـــير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم. وهذا المشـــلح بمقاصـــيره حسن القسمة مليح البنية وفى وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة . وجميع ذلك مبيض الســـقوف والجدران مبيضـــها مرخم الأرض بأصـــناف الرخام مجزع باختلاف الوانه . وترخيم الداخل يكون أبدا أحسن من ترخيم الخارج وهو مع ذلك كثير الضـــياء مرتفع الأزاج . جاماته مختلفة الألوان صـــافية الأصـــباغ بحيث اذا دخله الانســـان لم يؤثر الخروج منه لأنه اذا بالغ بعض الرؤســـاء أن يتخذ دار الجلوس وتناهى فى ذلك لم تكن أحسن منه .

وحدثنا عن موقد الحمام فســـماه بيت النار وكيف يســـخن قدور الماء التى يخرج من أعلاها مواســـير (أنابيب) تغذى الحمام بالماء الســـاخن . ويفرش أرض الموقد (المتوقد) بخمســـين أردب ملح لأنه يحفظ الحرارة كما يقول المقريزى .

واضافة لما قاله البغدادى نجد أن بعض الرحالة قد زاروا هذه الحمامات فقالوا ان أرضية الحمام كانت مغطاة بالسجاجيد وكان يوجد بها المدلكون وكانت مفتوحة صباحا للرجال ومساء للنساء وكانت العرائس يذهبن مع صاحباتهن وأقربائهن لتتزين والاستحمام يوم الزفاف .

وكان يوجد بالحمامات الماشطة والبلانة لتزيين المرأة وتصفيف شعرها وكانت الجوارى يقمن بتدليك النساء وكان أول حمام قد بناه عمرو بن العاص بالفسطاط وكان ضيقا فأطلق عليه حمام (الفار) .

وكان لبعض الحمامات بابان أحدهما للرجال والآخر للنساء . وكان الحمام في العصر المملوكى عبارة عن ثلاث قاعات الأولى درجة حرارتها معتدلة والثانية ويطلق عليها بيت الحرارة كانت قاعة لها قبة وبها ثلاثة أو أربع ايوانات (مقصورة) والحرارة مرتفعة والجو معبق بالبخار والقاعة الثالثة وهى المغطس .

وكانت النسوة يزرن الحمام أسبوعيا ويعتبرن زيارة الحمام نزهة في المناسبات ويتقابلن مع صاحباتهن به ويأكلن ويشربن ويقضين وقت فراغهن .

وكان الحاكم بأمر الله قد منع النساء من الخروج فى شوارع القاهرة لمدة سبع سنوات ما عدا القابلات (الدايات) . وشكا التجار اليه بأن تجارتهم كسدت لعدم خروج النسوة للأسواق فأمر التجار بنقل سلعهم من السوق الى الدروب وأن يكون التاجر ذراعه طويلة ويعرض البضاعة فى مغرفة لها يد ، وتمد المرأة وهى وراء حجاب يدها لتأخذ وتضع النقود فى المغرفة .

وكانت للأسواق أحكام يطلق عليها أحكام السوق وكان يطبق فيها الشريعة حسب أمور الحسبة . وكان للقاهرة محتسب يعينه الخليفة وكان يطلق عليه والى الحسبة وكان مقره عند بوابة المتولى .

ولعب بالقاهرة المحتسبون دورا كبيرا لأنهم كانوا يراقبون الأسعار فى أسواق مصر كما يعايرون الموازين والمكايل بها . ويفتشون على جودة الأصناف والأسعار . وكان ولاة الحسبة يراعون الأمانة فى البيع والشراء وعدم الخيانة فى الموازين أو الغش فى السلع وكان المحتسب تتبعه دار العيار يعاير فيها الموازين والمكاييل ودمغة المشغولات الذهبية .

وكان الهدف من الحسبة الأمر بالمعروف والنهى المنكر . لكن أصبح لها دور اجتماعى واقتصادى بتحقيق القسط والحق والميزان . وكان يدخل ضمن اختصاصها مراعاة تنفيذ أوامر السلطان . فلقد أمر الحاكم بأمر الله المحتسب بمنع النسوة من السير بالشوارع ومنع الندابات من السير خلف الجنازات . ومنع أى امرأة من التطلع من الطيقان والشرفات أو الظهور فوق أسطح المنازل . كما منع صانعى الأحذية من صنع الأخفاف لهن حتى لا يمكنهن من الخروج . ومنع محلات اللهو على الخليج وعند أبواب الشرفات والبيوت التى تقع عليه .

وكان على كل بائع معايرة موازينه ومكاييله بدار العيار وضبطها . وكان للمحتسب أعوان يراقبون الأسواق وينفذون الأحكام ويقول المقريزى : ان المحتسب رتب عريفا على كل صنعة وفى كل سوق يقبل قوله فى كل شىء وله أعوان ينفذون أوامره وأحكامه .

وأيام العصر الأيوبى كانت أسعار السلع بلا تسعيرة عكس العصر الفاطمى فكان المحتسب يحدد الأسعار . كما كان يراقب الخبز وأسعاره ووزنه ويحدد حصص الدقيق لكل مخبز حتى لا تحدث أزمة فى الخبز ولا سيما أيام المجاعات . وكان وظيفة المحتسب يوميا المرور على الأسواق ومراقبة نظافتها والاجراءات الصحية بها .

ولعب المحتسبون دورا كبيرا قبل أن تخرب ذممهم فى مراقبة جودة الصناعات المصرية . ولهذا كانت المصنوعات لها شهرتها العالمية وكان أى شىء صنع فى مصر له شهرته وسمعته . وكانت البضائع تفتش وتراقب قبل تصديرها ولا سيما فى العصر المملوكى ويوضع عليها خاتم الجمارك المصرية . وهذا كان كافيا وكفيلا بمرورها بأى ميناء بأوربا وتنزل بدون تفتيش للأسواق هناك .

وكان لكل حرفة نقيب (شيخ) بجيز الصناع الأكفاء ويعطيهم شهادة وكان من بغش يشهر به وبمهنته . لهذا كانت الصناعة فى الأسواق لها جودتها ودقة صنعها .

(١٠)

الجـــامع الأزهـــر

يعتبر الجامع الأزهر(١) من أهم معالم القاهرة المعزية . فمنذ نشأته وحتى نهاية العصـــر الفـاطمى كان مركز الفكر الشـيعى الاسـماعيلى الباطنى . وهذا الفكر فرضـه الفاطميون على كل مسـاجد مصـر . وكان منبره منصـة للسـباب فى الصحابة ولاسيما أبى بكر وعمر وعثمان . ومن فوق مئذنته كان يردد الأذان الشـيعى الذى أسـقط منه (الصـلاة خير من النوم) واضـيفت عبارة (حى على خير العمل) . كما أضـيفت عبارة (اللهم صلى على محمد والحسن والحسين) وكان هذا قد فرضـه جوهر عند دخوله الفسـطاط . كما منع الأئمة والخطباء من لبس السـواد شـعار العباسـيين وفرض عليهم التوشـح بالبياض شـعار الفاطميين . كما أمرهم بالدعاء للمعز وآل البيت فى خطبة الجمعة وقطع الدعاء للخليفة العباسى . وجامع الأزهر اليوم يعتبر جامعا للزخارف والعمارة الاسـلامية خلال العصـور التى ألمت به . وهذا ما يجعل طرازه نسـيجا معقد البنيان لاختلاف هيئة العقود والأعمدة به ، مما يخل بوحدة النمط المعمارى .

---

(١) أنظر (الأزهر فى ألف عام) للمؤلف طبعة مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر .

وكان جوهر الصقلى قد وضع أساسه بعد ثلاث سنوات من وضع أساس القاهرة وقبل مجىء المعز اليها .. حيث وضع أساسه عام ٣٥٩ هـ/٩٧٠ م وأقيمت فيه أول صلاة جمعة فى رمضان ٣٦١ هـ/٢٣ يونيو ٩٧٢ م .

والأزهر حاليا له شهرته العالمية بعد الحرمين الشريفين والقدس ويعتبر الآن بجامعته أكبر مؤسسة دينية تعليمية فى العالم لأنه يدرس العلوم النقلية والعقلية بعدما كان عند بنائه جامع القاهرة الوليدة وقاصرا على تدريس الفقه الشيعى الاسماعيلى طوال العصر الفاطمى . حيث حوله صلاح الدين الأيوبى الى جامع أهل السنة . ومن هذا التاريخ أصبح محافظا على العلوم الدينية واللغة العربية ومتصديا لكل بدع ولأى زيف وافد ومؤهلا لكل الفقهاء من شتى أنحاء العالم الاسلامى وكانوا يدرسون فيه ويلقون به دروسهم أو يتلقون فيه علومهم .

وبينما كان الأزهر موئلا للشيعة والفكر الشيعى كان جامع عمرو بالفسطاط يقوم بالحفاظ على الفكر السنى رغم اغراءات ذهب المعز . فأصبح جامع عمرو سدا منيعا ضد التيار الفاطمى لأنه كان أكبر مؤسسة دينية سنية فى العالم الاسلامى منذ انشائه .

وكانت العلوم تدرس بجامع عمرو حول أعمدته وكانت لا تتبع منهجية تعليمية لكنها كانت تتسم بالتلقائية التدريسية . عكس الجامع الأزهر فعند نشأته كانت له مناهج تعليمية تتسم بالفكر الشيعى حيث كان يدرب به الدعاة للمذهب الفاطمى على أيدى كبار الدعاة . وكان ينفق عليهم بسخاء . وكان ملحقا به مساكن للطلاب من كل مكان حتى من غرب أفريقيا . يلقنون به أصول

المذهب الاسماعيلي الشيعي . وكانوا يؤهلون ليكونوا دعاة لهذا المذهب الهرطقي في آسيا وافريقيا .

وأيام الحاكم بأمر الله أقام له مسجدا جعله يقوم بهذه المهمة حيث عطل صلاة الجمعة بالأزهر وجعلها قاصرة على جامعه وجامعي ابن طولون والفسطاط . وكان الجامع الأزهر أيام الفاطميين يلقى عناية الخلفاء وينفق على شئونه بسخاء . فلقد أقام الحافظ الفاطمي عام ٥٢٤ هـ/١١٣١ م سقيفة للجامع على صف من الأعمدة لتكون مقصورة قرب الباب الغربي للأزهر وأطلق عليها مقصورة فاطمة . وكان أيام الوقود يأتي الأهالي للجامع الذي كان مزينا ليعلنوا ولاءهم للخليفة الفاطمي .

ورغم ذهب المعز الا أن جامع عمرو بالفسطاط كان يغص بالدارسين لعلوم السنة وهذا ما جعل الفكر الشيعي محصورا في أروقة الأزهر وبين دعاته . لأن المصريين لم يقبلوا الهرطقة الشيعية ولاسيما سب الصحابة ومناحة عاشوراء .

والقاهرة المعزية وجامع الأزهر يعتبران من عمر واحد تقريبا . وكان قضاة القاهرة يتخذونه مقرا لهم يحكمون حسب المذهب الشيعي . ولما دخله المعز لأول مرة بعد وصوله للقاهرة وضع بصحنه توابيت أجداده الذين جلبهم معه لمصر . وصلى عليهم فيه .

ويوجد حاليا بالأزهر جزء من بنائه القديم ولاسيما مقصورته المربعة وأجزاء من الأفاريز الكوفية والأروقة الفارسية . التي شيدت في العصر الفاطمي . لكنه حاليا يعتبر مجمعا وجامعا للعمارة الاسلامية في العصور التي عاصرها . والجدران الأصلية للجامع كانت حوائط من الحجر وكانت سميكة جدا لكن الأيام لم تبق عليها .

وكان العزيز بالله قد شــرع فى بناء جامع الأنوار الا أن الحاكم بأمر أكمله وســمى جامع الحاكم . وقد شــرع فى بنائه عام ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م . وانتقلت اليه صلاة الجمعة وأبطل اقامتها بالأزهر .

وأيام حكم صــلاح الدين قد ابطل صــلاة الجمعة بالأزهر وجعلهــا بجامع الحاكم وكان قد تهدم فى زلزال ١٣٠٣ الا أن الســلطان بيبرس أعاد بناءه وأعاد صــلاة الجمعة بالأزهر وأهمل جامع الحاكم فى العصــر المملوكى وبقيت نقوشــه الكوفية ، وظلت أروقته قائمة حتى جددته مؤخرا طائفة البهرة . ويتميز هذا الجامع بمآذنه التى أطلق عليها المباخر . وجامع الأزهر منذ العصر المملوكى أصــبح جامعة دينية يدرس به المذهب السنى والمذاهب الفقهية الأربعة . وكان الطالب حرا فى اختيار المواد التى يتلقاها . وكلما قضى أطول مدة فى الدراســـة وحصــل على اجازات من شــيوخه . كلما كان مؤهلا لتولى المناصــب العليا كالقضــاء أو الافتاء أو التدريس بالأزهر .

وكانت الاجازات الســنوية طوال شــهرى شــعبان ورمضــان وأســبوعين بعد العيد وعشــرين يوما فى عيد الأضحى وشــهرا فى مولد النبى والســيد البدوى . وكان الطالب يتوجه الى أهله فى هذه العطلات . وكان عليه حفظ النصــوص عن ظهر قلب دون مناقشــتها أو ما كان يمليه عليه شــيخه من شروحات وتعليقات وحواشى للكتب . وهذه الدراســة قد تســتغرق عشر ســنوات . وقد يعيد دراسة هذه العلوم مرة ثانية على أيدى آخرين ليجيزوه فيها .

وأيام الحملة الفرنسية نجد أن رواتها قد وصــفوا شــيوخه قائلين : كان الشــيخ يلقى كل احترام من طلابه . وكانوا يتبعونه

كلما حل . فاذا أتى للمسجد اخذ أحدهم مركوبه (حذاءه) منه . وكان لو سار فوق حماره أو بغلته يتمسح به الناس فى سيره احتراما وتبركا . وكانوا يقومون له تبجيلا . وكان لو اشترى شيئا من اللحم أو الخبز أو الزيت وخلافه كان البائع غالبا ما يرفض أخذ الثمن .

وكان العزيز بالله الفاطمى يقدم الدروس الدينية أيام الجمع من شهر رمضان بالأزهر . فكان يخرج من قصره وحوله حاشيته مرتديا عباءة بيضاء وفى مقدمة الموكب حفظة القرآن يرتلونه بخشوع . ولم يكن يؤذن للمصلين بالدخول الا بعد دخول الخليفة ويتخذ مجلسه بجوار المحراب المغطى بالستر والبخور من حواله يعبق الجو . ويصعد الخليفة المنبر ليلقى الخطبة داخل هودج من الستر . ويقوم قاضى القضاة بالدعاء له . ولما تنتهى الخطبة أو الدرس كان يؤم المصلين . ولما يفرغ من الصلاة يعود لقصره وسط دق الطبول والموسيقى وأصوات الأبواق .

وزمن صلاح الدين انقطعت صلاة الجمعة والخطبة من الجامع الأزهر الذى اعتبره سمة للمذهب الشيعى ، وأقامها بجامع الحاكم . وكان الأيوبيون سنة على مذهب الامام الشافعى الذى يقضى بعدم جواز اقامة خطبتين للجمعة فى بلد واحد . فقصر صلاح الدين صلاة الجمعة بالمسجد الحاكم لأنه أوسع من الأزهر . الا أن السلطان بيبرس أعادها به . ويقول المقريزى : أقيمت الجمعة بالجامع الأزهر من القاهرة . وكانت قد بطلت منه . . الى أن سكن الأمير عز الدين أيدمر الحلى بجواره فانتزع (استرد) كثيرا من أوقاف الجامع الأزهر . . وأطلق له من السلطان (بيبرس) جملة من المال وعمر الواهى من أركانه

وجدرانه وبيضه وبلطه ورم سقوفه وفرشه واستجد به مقصورة وعمل فيه منبرا . فتنازع الناس فيه . هل تصح اقامة الجمعة فيه أم لا ؟ • فأجاز ذلك جماعة من الفقهاء • ومنعها قاضى القضاة تاج الدين (شافعى) . وصمم على المنع وعمل الأمير الحلى بفتوى من أجاز ذلك . وأقام فيه الجمعة . وسأل السلطان أن يحضر فامتنع عن الحضور ما لم يحضر قاضى القضاة • الا أن السلطان والقاضى لم يحضرا وحضر الصلاة الأمراء والفقهاء . ويقول ابن ظهيرة : وعمل الأمير بدر الدين بيلبك (وزير بيبرس) بالجامع مقصورة ورتب فيها مدرسة وجماعة من الفقهاء على مذهب الامام الشافعى . ورتب محدثا فيه يسمع الحديث النبوى وسبعة لقراءة القرآن . ووقف عليها الأوقاف .

وفى العصر المملوكى العثمانى (البكوات) كان الأزهر قد تراجعت مكانته ومكانة شيوخه لدى العامة بعدما تفشى التصوف وشاع أمر رجال الصوفية الذين أصبح العامة يؤمنون بهم وأباطيلهم بعدما سيطروا على الفكر فى مصر وأخذ رجال الأزهر يحاربونهم دون جدوى •

وأول شيخ للأزهر هو الشيخ عبد الله القرشى وكان السلطان العثمانى سليمان القانونى قد أصدر بتعيينه فرامانا . وكان يتبعه كل اجهزة الأزهر وأوقافه وشيوخه . وكان الطلاب به من الكتاتيب ويتبع نظام الحلقات فى التدريس وكانت مفتوحة لأى مسلم .

وقد قام الأمير عبد الرحمن كتخدا بعدة توسعات بالأزهر ما بين عامى ١٧٤٨ و ١٧٧٦ . فزاد من عدد الأروقة خلف المحراب واقامها فوق خمسين عمودا من الرخام وجدد الواجهة واقام مئذنة وصحنا صغيرا . ويعتبر كتخدا أكبر من عمر الأزهر .

وكان للأزهر فى القرن ١٨ ستة مآذن انهارت أحداها عام ١٨٩٦ . وكان يؤذن من فوقها فى وقت واحد مؤذنون عميان حتى لا يكتشفوا عورات البيوت المجاورة . وكان يوجد به سبع مزاول لتحديد أوقات الصلاة . وكان فوق الصحن أروقة وكان لكل رواق شيخه ويضم أجناسا مختلفة . فكان الرواق الشامى والرواق المغربى أو الصعيدى أو الشرقاوى وكان بالأروقة مكتبة .

وكان الطلاب يرتدون العمامة والجبة وأيام محمد على كانوا معفيين مع حفظة القرآن من التجنيد . ويصرف لهم الجرايات يوميا من الخبز بالمجان . وكان حول الجامع بالحارات أروقه يخزن فيها الطلاب حاجياتهم .

وأيام مشيخة الشيخ العباسى المهدى أعاد للأزهر أوقافه واستطاع جعل التدريس به عام ١٨٧٢ قاصرا على مدرسين معينين وعلى الطالب أن يتقدم بطلب كل عام لامتحانه أمام لجنة تعينها المشيخة . والخريج يمنح شهادة يوقع عليها الخديوى نفسه . وله حق التدريس بالأزهر .

وبعد الاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ لمصر . لم يكن للخديوى توفيق أى سلطة سوى على الأزهر . فقام بعد ترميمات وتجديدات وأيام الخديوى عباس الثانى أعيد بناء الأعمدة والبواكى حول الصحن وأعيد بناء حوائط الأروقة التى تطل على الشارع بالناحية الجنوبية وأكمل الرواق العباسى وأصبح علوه ثلاثة أطباق .

وفى عام ١٩٢٩ أصبحت الجراية نقدا وكانت تصرف للطلاب كل ستة شهور وكانت الكتب والمحفوظات مبعثرة بالأروقة . فقرر شيخ الأزهر حفظها بمدرستى اقبغا وطيبرس فى

خزائن وصناديق الى أن أقيمت المكتبة بالجامع . عام ١٨٩٧ . وفى سنة ١٨٨٨ صدر فرمان من الخديوى بتطوير الأزهر وادخال العلوم الحديثة به كالرياضيات والحساب والهندسة والجغرافيا وأفتت دار الافتاء باجازة تدريسها طالما لا تتعارض مع الشريعة الا أن هذه العلوم ظلت هامشية بالنسبة للعلوم القرآنية حتى فى هذه المجالات من العلوم الطبيعية • وفى عام ١٨٩٥ صدر فرمان بتشكيل أول مجلس ادارى للأزهر وكان براسه شيخ الأزهر ويضم ممثلين عن المذاهب الأربعة وعن الحكومة . وفى نفس السنة صدر قانون بتنظيم الرواتب والجراية للشيوخ والطلاب • وقد أصبحت المدارس الدينية فى طنطا ودسوق والاسكندرية ودمياط تابعة للأزهر واشرافه .

وفى سنة ١٨٩٦ صدرت لائحة للأزهر جعلت الالتحاق بالأزهر فى سن ١٥ سنة ويكون الطالب حافظا لنصف القرآن ويكون ملما بالقراءة والكتابة واو كان من العميان أعفى من شرط القراءة والكتابة الا أنه يكون حافظا لكل القرآن . وبينت اللائحة مواد الدراسة ومستوياتها . وحددت العطلات فى شهر رمضان والأعياد والمولد النبوى وموادى الحسين والسيد البدوى . وتكون مدة الدراسة ٨ سنوات فى كل سنة مقرر يدرسه الطالب وفى نهاية هذه السنوات الثمانية يمتحن أمام لجنة رباعية يرأسها شيخ الأزهر ويعطى بعدها الطلاب الشهادة الأهلية وهذه الشهادة كانت تؤهل الخريج للعمل كامام مسجد والقاء خطبة الجمعة ولو أمضى الخريج أربع سنوات أخرى كان يمنح شهادة العالمية (تعادل الدكتوراة) ويحق لحاملها التدريس بالأزهر او معاهده أو الالتحاق بالقضاء .

وخلال هذا القرن أجريت عدة اصـــلاحات فى مناهج الأزهر وتطويرها الى أن صـــدر قانون تطوير الأزهر عام ١٩٦١ . وكان قبله التعليم بالأزهر يضـــم التعليم الابتدائى والثانوى والعالى . وكانت الجامعة الأزهرية تضـــم كليات الشـــريعة واصـــول الدين واللغة العربية لكن بعد التطوير اصـــبح جامعة بها كليات مدنية كالطب والصـــيدلة والعلوم والزراعة وغيرها . علاوة على الكليات الدينية الثلاثة وبعد التطوير حلت هيئة كبار العلماء وحل محلها مجمع البحوث الاسلامية . واصبح لجامعة الأزهر مديرا يتبع شيخ الأزهر .

(١١)

العمـــارة المملوكيــة

يعتبر المماليك بنائى عمائر ســواء ابان حكمهم لمصــر أو الشــام أو فلسطين أو الحجاز . وتعتبر عمارتهم ســمعة بارزة فى العمارة الاســلامية واشــتهرت عمارتهم للمساجد بالقباب .

فنجد السـلطان الظاهر بيبرس قد أقام بالقاهرة مســجده ومدرســة بين القصــين بجوار المدرسة الصالحية . وأقام الملك منصــور البيمارستان المنصــورى عام ٦٨٢ هـ/١٢٨٣ م . وقد بناه فى عشــرة شهور وأوقف عليه الضياع والأملاك والحدائق . ولما تســلطن الملك حسام الدين لاجين عمر جامع بن طولون وكان خرابا بغير ســقف لمدة ١٧٠ عاما . وأقام فوقه مزولة . وكان ينفق على المقاتية من أوقاف للمزولة ليحددوا أوقات الصلاة .

وفى عام ٧١٢ هـ/١٣١٢ م قام الناصــر محمد بن قلاوون بانشــاء جامعه عند موردة الحلفاء وعمر ســـور الميدان الكبير عند موردة الجبس ووسع جامع القلعة وبنى له المئذنة الخضراء . وحفر البركة الناصــرية بجوار الميدان الكبير بالقلعــة وكانت تستمد المياه من الخليج الناصــرى . وبالقلعة أقام القصــر الأبلق وقصـــرين خلفه وعمر الايوان الكبير وأقام فوقه قبة كما عمر

حوش القلعة ودور الحريم واقام مجراة للمياه من النيل للقلعة . وحفر الخليج الناصرى من ناحية موردة الجبس الى زقاق الكحل وبنى منظرة الدهيشة تطل على الحوش السلطانى بالقلعة . وقام بعدة تجديدات للأسطبل السلطانى ومسجد راشدة والسيدة نفيسة والطبلخانات وغيرها مما حدثنا به ابن اياس فى (بدائعه) .

وكان الأمير آل ملك نائب السلطان شهاب الدين بن الناصر قلاوون قد بنى جامعه بالحسينية فوق خزانة البنود التى كانت سجنا ومكانه كان يدار فيه القمار والفساد . فهدم المكان وبنى مسجده الا أنه ظل مغلقا ومهجورا لا يصلى فيه الناس لما تقدم فيه من فساد وسفك للدماء .

وبنظرة شاملة لما أقامه سلاطين المماليك من عمائر بالقاهرة . نجد أنهم اقاموا حوالى ٦٠ مدرسة و ٤٥ جامع ومسجد علاوة على الزوايا والخانقهات وأكثر العمائر ما أقامها الناصر ابن قلاوون فى عصر المماليك البحرية والسلطان الأشرف قايتباى فى عصر المماليك الشراكسة . ويعتبر العصر المملوكى أكبتر عصر أقيمت فيه عمارة اسلامية . ومن أشهرها المشهد الحسينى الذى بناه بيبرس وجامعه . ومارستان قلاوون والمدرسة الناصرية وقصر القلعة وقصر بشتاك وجوامع الطواشى وشيخو والسلطان شعبان والحوش بالقلعة وقايتباى وجقميق وخير بك . ومن الآثار التى مازالت قائمة حتى الآن خانقاه بيبرس والمدرسة الطيبرسية وجامع الأمير حسين والمدرسة الجاولية وجامع قوزان والمدرسة الاقبغجية وقصر بشتاك وخانقاه قوان وأم أنوك وجامع كجك وشيخو وخانقاهه ومدرسة السلطان حسن ومدارس البيكرية والحجازية وجاى اليوسفى

وايتمش وبرقوق واينال وجمال الدين ومارستان المؤيد وغيرها من الوكالات كوكالة الغورى وقيتباى والجوامع والمساجد التى مازالت قائمة أو مازال أجزاء منها حتى الآن .

وكان السلطان الناصر حسن قد بنى مدرسته فى سوق الخيل تجاه القلعة وبها مسجده وتضم أربع مدارس لكل منها شيخ مذهب وكان فى صحنه فسقية .

أما السلطان الناصر فرج فقد اقام مدرسة الدهيشة تجاه باب زويلة . وعمر جامع الصالح قربه . وبعده اقام الملك المؤيد جامعه داخل الباب وكان مكانه سجن يسمى خزانة شمايل أحد أبطال الحرب فى دمياط أيام الملك الكامل قبل حملة لويس التاسع . وكان المؤيد قد حبسه السلطان فرج فى ذلك السجن . الا أنه أخذ باب مدرسة السلطان حسن والتنور الكبير وجعلهما فى جامعه الذى به فسقية ماء . واثناء بناء الجامع مالت احدى المئذنتين فأعيد بناؤهما .

واثناء حكم السلطان الأشرف برسباى عام ٨٢٥ هـ/١٤٢٢م بنى مدرسته عند سوق الوراقين وبنى له خانقاه عبارة عن مدرسة وضريح له وكان فى الصحراء وقتها ومازال هذا الجامع والخانقاه موجودين . وحكم مصر السلطان الأشرف قايتباى عام ٥٦٥ هـ/١٤٦١ م . وقد بنى فى عهده جامعا تمراز وازبك بشتك ووكالة قايتباى ومدارس قايتباى والروضة وازبك وابن مزهر ومازالت هذه الآثار قائمة حتى الآن . وأقام جامعه الذى به قبره والسبيل قرب تحت الربع وغيره من الأسبلة والزوايا والربوع والحوانيت التى أوقفت على مسجد الرسول . كما جدد القلعة فأقام المقعد بالحوش والايوان الناصرى .

١

وفى عام ١٥٠٤ أقام الغورى قناة تسـمى المجراة الجديدة عند موردة الخلفاء على النيل وجعل لها بئرا بجواره تتسـرب اليه الماء وبنى فوقه سـواقى ترفع المياه الى مجراة فوق قناطر معقودة على دعائم (أعمدة) تصـل الى باب الزغلة وتتصـل بالميدان والقلعة . ودارت الدواليب ووصـل الماء للميدان عند القلعة ثم صـنع سـواقى ترفع الماء لأعلى لتملأ ثلاثة صهاريج تمد البستان الذى شـيد فى الميدان بالماء وكان به بركة صـغيرة وسـطه . وكان هذا البسـتان به مقاعد رخامية للتنزه واقامة الحفـلات والمآدب . والغورى كان مهتما ببناء المخازن والمحـلات لأزدهار التجارة فى عهده فأقام وكالته الشـهيرة وأقام بالجامع الأزهـر مئذنة براسـين مازالت حتى اليوم وأقام عدة ربوع بخان الخليلى الذى جدده ووسـعه وبنى ربعين عند الصـورين وطاحونة عند المصـبغة . وغيرها من المنشآت والتجديدات .

وبعد زوال دولة المماليك انتهى عصـر العمارة بعد مجىء العثمانيين لمصـر ١٥١٨ وأخذ السلطان سليم معه خيرة الصناع والبنائين ليبنوا له عاصمته الأستانة (استانبول) ولم تشـهد القاهرة عمارة متميزة كالعمارة المملوكية .

(١٢)

الأوبئـــة والمجـــاعات

كان اكثر المؤثرات على مصـــر ولاسيما القاهرة والفسطاط فى العصـــور الوســـطى الأوبئة والمجاعات . وكان يطلق عليها الشـــدائد والغلوات . فلقد كان الطاعون يحصـــد كل موســـم وباؤه الآلاف حيث كانت الأرض لا تجد من يزرعها فتنتج المجاعات الضـــاربة . وكانت كل شـــدة تنســـب الى السلطان كشـــدة المســـتنصرية وكان المؤرخون يطلقون على وباء الطاعون الفناء الكبير . فنجد أن فى العصـــر المملوكى خلال ٣٠٠ سنة اجتاح مصر ٦٤ وباء ومجاعة قد ســـجلها المؤرخون فى كتاباتهم .

وكان من أهم أسباب المجاعات بالقاهرة قصـــور النيل عند الفيضـــان ولم يكن هناك مشروعات منظمة للمحافظة على مياه النيل وتخزينها كما فى السد العالى وخزان أســـوان والقناطر الخيرية .

والمقريزى فى تصـــوير لهذه الشـــدائد كان يطلق عليها الغمة . وهذه الشـــدائد الكبرى قد صـــورها المقريزى فى كتابه (اغاثة الامة بكشـــف الغمة) حيث قال : كان أول غلاء وقع فى

مصر كان ايام خـــلافة عبد الملك بن مروان . ثم وقع غلاء فى الدولة الاخشـــيدية فثارت الرعية . ثم وقع غلاء سنة ٣٤١ هـ فكثر الفقر فى أعمال مصـــر .. ثم قصـــر النيل ثم وقع الغلاء فى الدولة الاخشـــيدية أيضا واســـتمر تســـع سنين متتابعة وابتداء فى سنة ٣٥٢ هـ . وكان ســـبب الغلاء أن ماء النيل انتهت زيادته الى ١٥ ذراعا وأربعة أصابع . وعز الخبز فلم يوجد وزاد الغلاء . وقصـــر مد النيل فى سنة ٣٥٣ هـ فلم يبلغ ســـوى ١٥ ذراعا وبضـــعة أصابع . واضطرب فزاد مرة ونقص أخرى حتى صـــار فى النصـــف من شهر بابة الى قريب من ١٦ ذراعا ثم زاد قليلا وانحط ســـريعا . فعظم الغلاء . ويقول بأن الأعمال انتقصـــت ونهبت لاضـــياع وماج الناس ودخلوا الجامع العتيق بالفســـطاط فى يوم الجمعة ولم تصـــل الجمعة يومئذ .

وبعض هذه الغلوات قد يكون بسبب الفتن او احتكار القمح . فأيام الحاكم بأمر الله تعذر وجود الخبز فى الأســـواق . فأقســـم بأنه ماض الى جامع راشـــدة ليصـــلى العصـــر وعند عودته لو وجد موضـــعا يطئه حماره مكشـــوفا من الغلة ليضربن رقبة كل من عنده شيئا منها . ويقول ابن اياس : فما بقى أحد من أهل مصـــــر عنده غلة حتى حملها من بيته أو منزله وشـــــونها فى الطرقات . وبلغت أجرة الحمار فى حمل النقلة الواحدة دينارا . فأمتلأت عيون الناس وشبعت نفوسهم .

وفى شـــــدة ســـنة ٦٩٥ هـ/١٢٩٥ م نجد ابن اياس قد صـــورها بقوله : أجدبت البلاد وشح النيل .. اشـــتد الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال .. ولم يبق عند أحد شىء من الدواب . حتى صار يباع الكلب السمين بخمســـة دراهم والقطة بثلاثة دراهم .

ويقول ابن اياس : فلما طال الأمر على الناس أرسل الله اليهم جرادا كثيرا فأكل الناس منه شيئا كثيرا حتى قيل كان يباع منه كل أربعة أرطال بدر همين .

ويقول : اعقب هذا فناء عظيم حتى صار الناس يتساقطون موتى فى الطرقات .

ويصف الجبرتى مجاعة عام ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م قائلا : اجتمع الفقراء والشحاذون رجالا ونساء وصبيانا وطلعوا الى القلعة ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجموع فلم يجبهم أحد فرجموا بالأحجار . فركب الوالى (العثمانى) وطردهم . فنزلوا الى الرميلة ونهبوا حواصل الغلة التى بها وكالة القمح وحاصل كتخدا باشا وكان ملآنا بالشعير والفول .

ويقول الجبرتى : حضر أهالى القرى والأرياف حتى أكل الناس الجيف ومات الكثير من الجوع . وخطف الفقراء الخبز من الأسواق ومن الأفران ومن على رؤوس الخبازين . ويذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصى حتى يخبزوه بالفرن ثم يعودوا به .

ووصف المقريزى الشدة المستنصرية وأوعزها الى الفتن واستيلاء الأمراء على الدولة وقصور النيل عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م فقال : فنزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء .. وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا . فكانت طوائف تجلس بأعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب . فاذا مر بهم أحد القوها عليه ونشلوه فى أسرع وقت وشرحوا لحمه وأكلوه . ثم آل الى أن باع المستنصر (الفاطمى) كل ما فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره . وصار يجلس على

حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره . وكان نساء العصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن الجوع . الجوع . فتسقطن عند المصلى وتمتن جوعا واحتاج المستنصر حتى باع حلية قبور آبائه .

ويقول عبد الله بن عبد الحكم عن هذه الشدة ان امرأة من ذوى البيوتات أخذت عقدا من الجواهر قيمته ألف دينار فعرضته على جماعة من الناس فى أن يعطوها عوضه دقيقا . فأخذته فى تليس وخرجت به من مدينة الفسطاط تريد القاهرة . فلما وصلت باب زويلة تكاثرت عليها الناس فانتهبوا ما كان معها من الدقيق . فأخذت بجملة الناس ملء يديها دقيقا . فلما وصلت به الى بيتها عجنته رغيفا وخبزته فلما خرج من الفرن اخذته على جريدة وتوجهت الى قصر الزمرد ووقفت تحته ونادت بأعلى صوتها . ورفعت الرغيف وقالت : يا أهل القاهرة . ادعوا بالنصر لأمير المؤمنين المستنصر بالله الذى اكلنا الرغيف فى أيامه بألف دينار . المهم سمعها المستنصر وأحضر وزيره وحاجبه وهددهما بالشنق على باب زويلة اذا لم يظهر الخبز فى الأسواق فكبسا على البيوت والحارات حتى ظهر الخبز بالأسواق وكثر بالدكاكين .

وكان هذا الغلاء فى كثير من الأحيان مفتعلا من تجار الحبوب والخبازين والطحانين . بدليل عندما كانت السلطات تهددهم وتجبرهم كانت الغلال تظهر وترخص . ولاسيما لو علموا أن النيل شحيح فى فيضانه . لهذا بعض السلاطين كانوا يكلفون عمال المقياس بألا يخبروا سواهم عن منسوبه حتى لا تنشر الشائعات وتقل الغلال بالأسواق . وكثير من سلاطين دولة المماليك الشراكسة والأمراء كانوا يخزنون

الغـــلال ويســـتولون عليها من الأســـواق عنوه ليبيعوها بأسعار فلكية ولاسيــما أيام القحط والســنين العجاف . وكان يتم هذا عادة لو قل منســوب الفيضـــان عن ٥ أذرع لأن هذا معنـــاه أن البلاد ستمر بحالة قحط . عكس دولة المماليك البحرية فعندما كانت البلاد تواجه قحطا فى الغـــلال كان الســـلاطين يأمرون باخراج الغلال من الشـــون الســـلطانية كحصـــص يومية للطحـــاحين والخبازين . وكانت الغـــلال تباع للفقـــراء والأرامل مع تحديد حصص كل فرد منها . وكان المحتســـب يراقب المطاحن والمخابز ويحدد أســـعار الخبز .

وأيام الملك الأشـــرف شـــعبان عام ٧٧٥ هـ/١٣٧٤ م . توقف النيل عن الوفاء (أكثر من ١٥ ذراعا) ونقص أصـــبعين . فضـــج الناس .. ويقول ابن اياس : فرســـم الســـلطان للناس بأن يخرجوا ليستسقوا .. خرج الناس قاطبة الى الصـــحراء واجتمع هناك الجم الغفير من العلماء والصلحاء والفقراء والرجال والنســـاء والأطفال وطائفة اليهود والنصـــارى . وحضـــر الخليفة (العباسى) والقضـــاة الأربعة ولم يزل الســـلطان معهم ثم توجهوا من وراء القبة ونصـــبوا هناك منبرا وصـــعد اليه قاضى القضـــاء الشـــافعى وخطب خطبة بليغة فى الاستسقاء . ولما حول رداءه كشـــف عن رأســـه ودعا الله تعالى .

ويقول ابن اياس : فلما اشـــتد الأمر وشـــرقت البلاد (جفت) رســـم الســـلطان بأن يجمع الحرافيش الذين فى القاهرة ويفرقون على الأمراء وأعيان التجار . ويعطون لكل فقير رغيفين وما شـــاكل ذلك من الطعام .. وظل الأمر سنة حتى صـــار الناس يأكلون خبز الفول وخبز النخال والذرة . وأيام الســـلطان العـــادل حـدث غـلاء ســـببه نقص النيل وباء الطاعون فى سنة

٥٩٦ هـ/١٢٠٠ م . وكانت سنة توليه السلطنه . وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بنى آدم من الجوع (الاطفال) . فكان الأب يأكل ابنه مشويا أو مطبوخا . والمرأة تأكل ولدها .. فكان يوجد بين ثياب الرجل أو المرأة كتف صغير أو فخذه أو شىء من لحمه . ويدخل أحدهم على جاره فيجد القدر على النار فينتظرها حتى تتهيأ . فاذا هى لحم طفل .

وأيام السلطان العادل كتبغا عام ٦٩٤ هـ/١٢٩٥ م . قضى الوباء على معظم سكان مصر والقاهرة . وغالى العطارون فى أثمان الأدوية وغنوا غناء فاحشا وغالى الأطباء فى أسعارهم لكثرة الأموات ومن كثرتهم كانوا يدفنون فى حفر كمقابر جماعية ويقول المقريزى : وجافت الطرق والأسواق من الموتى . وكثر اكل لحوم بنى آدم وخصوصا الأطفال . فكان يوجد الميت وعند راسه لحم الآدمى ويمسك بعضهم فيوجد معه كتف صغير أو فخذه أو شىء من لحمه .

وروى ابن اياس عن وباء ٨٠٧ هـ/١٤٠٥ م . وكان اشبه بالانفلونزا ومات كثير من الناس بالطرقات وفتح مغسل برسم الأموات عند جامع بشتك . فكانوا يأتون اليه بالأموات على عتالين يطرحونهم على بابه حتى يغسلوا ويكفنوا . وعددهم لا يحصى . وفى عام ٨٣٣ هـ/١٤٢٩ م وقع وباء الطاعون فى فصل الشتاء على غير عادة الطواعين التى موسمها بالربيع . وكانت وكانت قوة عمله كما يقول ابن اياس فى الغرباء والأطفال والمماليك والعبيد والجوارى . حتى قيل من مات فى يوم واحد أربعة وعشرون الف جنازة حتى ضج الناس من ذلك وصار يودع بعضهم بعضا .

وفى عام ١٢٠٥ هـ/١٧٩١ م كان وباء الطـــاعون ويقول الجبرتى : ومات به مالا يحصى من الأطفال والشـــبان والجوارى والعبيد والمماليك والأجناد والكشـــاف والأمراء .. وعســـكر القليونجية والأرناؤد الكائنون ببولاق ومصـــر القديمة والجيزة . وكان يخرج من بيت الأمير فى المشـــهد الواحد الخمســـة والستة والعشـــرة . وازدحموا على الحوانيت فى طلب العدد والمغسلين والحمالين ويقف فى انتظار المغســـل أو المغســـلة الخمســـة والعشـــرة يتضاربون على ذلك . ولم يبق للناس شـــغل الا الموت وأســـبابه . فلا نجد الا مريضـــا أو ميتا أو عائدا أو معزيا أو مشـــيعا فى تجهيز ميت أو باكيا على نفســـه موهوما . ولا تبطل صـــلاة الجنائز من المســـاجد والمصليات ولا يصلى الا على أربعة أو خمسة أو ثلاثة .

هذه صورة الأوبئة والمجاعات التى كانت تداهم ســـكان القاهرة بلا تعليق .

(١٣)

فلوس مصر

كان أيام الخليفة عبد الملك بن مروان تسك الدنانير العربية فى دار سك النقود فى الفسطاط ودمشق . وكان وزن الدينار ٤ر٢٥ جرام وعليه اسم الوالى أو عامل الخراج الذى ضرب النقد فى عهده وعليه اسم الخليفة وصورته . وكانت النقود البرونزية تسك بالفسطاط وعليها تاريخ الضرب الهجرى . وظلت النقود تسك بمصر بهيئتها الأموية حتى ابان الخلافة العباسية وحتى عهد هارون الرشيد . وظلت تكتب بصيغها الاسلامية وعليها اسم الوالى العباسى .

وأيام أحمد بن طولون كانت النقود تسك باسمه وكان عليها اسم الخليفة العباسى ولاسيما الدنانير الأحمدية . وكانت من انقى أنواع الذهب التى كان يتاجر فيها الصاغة . ولما استردت الخلافة العباسية مصر من الطولونيين ألغيت الدنانير الطولونية وضربت الدنانير العباسية ولم يكتب عليها اسم الولاة حتى تولى الاخشيد وضرب الدنانير باسمه بعد ٣٠ سنة من الغاء الدنانير الأحمدية .

ولما أتى المعز لدين الله مصر أحضر معه سبائك الدنانير المغربية بعدما صهرها وصبها فى شكل أحجار الطواحين وكانت السبائك القرصية مفرغة فى وسطها . وكان كل جمل يحمل حجرين من هذه السبائك الذهبية . ثم أعاد ضربها بدار السك بالفسطاط . فضربت الدنانير المنصورية والمغربية وكانت تحمل اسم المعز وعليها كتابات شيعية ولاسيما عبارة (على أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين) . ووصل عيار الذهب فى هذه الدنانير ٥ر٢٣ قيراط وهو عيار دنانير ابن طولون . لكن عيار الخليفة العباسى الراضى ظل متداولا بمصر لأنه أنقى وأصقل . الا أن المعز غمر الأسواق بديناره وخفض سعره . ومنع تداول الدينار العباسى وأمر بعدم التعامل الا بديناره فباع المصريون دينار الراضى بأبخس الأسعار وكانت الدولة تشتريه وتكسب فى فرق الوزن .. فأصبحت النقود وسيلة ضغط اقتصادى على تجار الفسطاط . واخترع الفاطميون العملات الذهبية التذكارية ويطلق عليها الخراريب . وكانت توزع فى الأعياد والمناسبات على رجال الدولة والأمراء والحاشية ولا سيما النقود التى كانت توزع فى غرة السنة الهجرية .

وأول ذكر للدراهم بمصر كان أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى ويقول الأمير عز الملك المسجى بانه فى ٣٥٧ هـ تزايد أمر الدراهم القطع المتزايدة فبيعت ٣٤ درهما بدينار .. فرفعت الدراهم وأنزل بعشرين صندوقا من بيت المال فيها دراهم جدد .. ففرقت فى الصيارف وقرىء سجل برفعها (ابطالها) والا يتعامل بها . فبلغت أربعة دراهم بدرهم من الجدد .

وكانت الفضة تضرب بمصر نقودا وكان يطلق على الدراهم الفضة المسودة أو نقود مصر وكان المصريون يطلقون عليها أيضا الورق ولم يكن يتعاملون الا بها . والدرهم

النحاس به قليل من الفضة وكان هذا الدرهم متداولا حتى مجىء الأيوبيين . وأطلق على هذه الدراهم الدراهم العتق أو الدراهم المسودة .

ومع بداية السلطنة الأيوبية قل الذهب والفضة من مصر . لأن ظروف الحروب الصليبية وقتها كبدت البلاد نفقات كبيرة كما أن التنقيب عن الذهب فى صحراء وادى العلاقى الشرقية قد توقف . كما أن حركة تصدير البضائع من مصر كانت شبه متوقفة ولاسيما فى عهد الدولة الفاطمية التى احتكرت صناعة النسيج مما جعل بغداد تقاطع المنسوجات الفاطمية. وفى السلطنة الأيوبية مع استمرارية الحرب التحريرية مع الصليبيين استنفدت مخزون مصر من الذهب لانهم كانوا يهربونه الى اوربا . وتنبهت السلطات الأيوبية لهذا . فأخذت تخزن الدنانير الذهبية وطرحت الدراهم الفضية . فدرهم صلاح الدين كان نصفه فضة ونحاس لهذا أطلق عليه الورق أو الزيوف . وظلت هذه الدراهم سائدة حتى تولى السلطان الكامل الأيوبى وأمر بضرب دراهم مستديرة لأن الدرهم الزيوف قيمتها المعدنية أقل من قيمتها فى الأسواق . وظل السلاطين الأيوبيون يخشون التوقف عن التعامل فيها لأنها لو سحبت من الأسواق سوف تسحب بقيمتها الأسمية وليست حسب قيمتها المعدنية . الا أن السلطان الكامل أخذ قرار جريئا وحاسما بايقافها ونزعها من الأيدى ومن الصيارف وطرحت الدراهم الكاملية الفضية ثلثها نحاس والثلثان فضة . وهذا رفع من القيمة المعدنية للعملة مما جعلها تروج فى مصر والشام الأيوبية ، وأصبح التعامل بها قد طغى على الدنانير الذهبية . وظلت الدراهم الكاملية سائدة حتى فى عصر المماليك لأن

التعامل بها كان على نطاق واسع . وكان الدرهم وزنه ١٨ خروبة والخروبة ثلاث قمحات (١٩٤ر٠) جرام والمثقال ٢٤ خروبة .

وكان يوجد نوع ثالث غير الدينار والدرهم ألا وهو الفلوس وكانت من النحاس وأطلق عليها المحقرات . وكان قد ضرب منها كميات قليلة . وأول من صنعها السلطان الكامل الأيوبى كما يقول المقريزى فى (الاغاثة) : وكان سبب ضربها .. أن امرأة تعرضت لخطيب الجامع بمصر .. تستفتيه .. قائلة : أيحل شرب الماء أم لا ؟ فقال : يا أمة الله ، وما يمنع عن شرب الماء ؟ . فقالت : ان السلطان ضرب هذه الدراهم (الكاملية) . وانى اشترى القربة بنصف درهم (زيوف) ومعى درهم (كاملى) . فيرد السقاء على نصف درهم ورقا . فكأنى اشتريت منه ماء ونصف درهم (ورق) بدرهم (كاملى) . فأنكر الخطيب أبو الطاهر المحلى ذلك واجتمع بالسلطان . فأمر بضرب الفلوس كنوع من الفكة فى التعامل . وكان الدرهم الكاملى يساوى ٤٨ فلسا والفلوس كانت مقسمة أربع قطع . وأيام سلطنة العادل كتبغا ضربت الفلوس وتوقف الناس عن التعامل بها فعرضها فنودى فى سنة ٦٩٥ هـ/١٢٩٥ م بالأسواق أن توزن الفلوس بالميزان . وكان هذا أول تعامل فى النقد بمصر بالوزن . لهذا كان كل تاجر يقبض العملة ولديه ميزان يوزنها ولم يكن التعامل بها عدا .

وأيام السلطان برقوق جلب النحاس الأحمر من بلاد الفرنجة وأخذ دارا الضرب بالقاهرة والاسكندرية يضربان الفلوس فكثرت فى أيدى الناس وراجت حتى أصبحت غالبية النقد فى مصر . وقلت الدراهم لعدم ضربها وسبك الموجود منها لصنع الحلى الفضة للنسوة . وكثر الذهب لأن السلطان

برقوق كان ينعم به كميات على أمرائه . وفى عهده كثر وجود الذهب حتى كان مع السوقة كما يقول المقريزى .

من هنا نجد العملة كانت الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والدراهم النحاسية التى كان يطلق عليها الفلوس . وكان يطلق على الدراهم الفضية الدراهم النقرة .

وأيام الملك المنصور أبو السعادات عام ٨٦١ هـ/١٤٥٦ م . عقد السلطان مجلسه الذى حضره القضاة الأربعة ومشايخ العلم . وأثير فيه مسألة غش الفضة فى العملة . واحضرت — كما يقول ابن اياس — نقود الدول القديمة من أيام المؤيد (سلطان) الى دولة الظاهرة جمقق . فسكت فلم يوجد أكثر غشا وفسادا من ضرب فضة الأشرف اينال . فأمر السلطان بأشهار المناداة فى القاهرة بابطال المعاملات (العملة) الحلبية والدمشقية . فاضطربت الأحوال . فنودى بالقاهرة بأن كل شىء على حاله فى المعاملة الحلبية وغيرها .

وبعد عامين ضرب السلطان فضة جديدة وابطل سائر المعاملات من تلك الفضة المغشوشة التى وصل الدينار منها الى أربعمائة وستين درهما . فخسر الناس ثلث أموالهم . الا أن المعاملة صلح أحوالها بعد القبض على الزغلية (الغشاشين) وقطعت أيديهم . وبهذا صاحت العملة حتى عهد السلطان الغورى .

وكان للذهب أهميته فى المعاملات التجارية ولهذا تعرضت العملة الذهبية للتلاعب فى الوزن والعيار أيام العصر المملوكى . فنجد السلطان الأشرف برسباى قد تعمد انقاص وزن العملة الذهبية والفضية والنحاسية وطرحها بسعرها الأسمى الذى

أعلى من قيمة أوزانها واستبعد العملات الأجنبية من الأسواق وجمعها بالثمن المخفض فلحق الخراب التجار ولاسيما وانه كان قد احتكر كل التجارة والبضائع المستوردة والمحلية . وظل الدينار الأشرفى (نسبة لبرسباى) متداولا فى مصر ووزنه ٣٫٤٧ جرام حتى نهاية عصر الغورى وطومانباى آخر سلاطين المماليك أى حتى عام ١٥١٧ م .

وفى عصر السلطان قلاوون ظهرت الدوكات البندقى والأفرنتى وكان التجار يطلقون عليها الدنانير المشخصة لأن عليها صور القديسين وصورة دوق البندقية لهذا أطلق عليها الدوكات (الدوقات) وكثر تداول الدوكات ولا سيما فى جمارك مصر ولاسيما فى القرن ١٣ . كما سادت الفلورينات (عملة فلورنسا) وكان (الدوك) مطلوبا فى أسواق مصر والشام واليمن لدقة استدارته ووزنه ٣٫٤٥ جرام وعياره مرتفع عكس الدنانير المملوكية كانت وقتها رديئة الصنع وبلا عيار أو وزن ثابت أو سمك محدد . لهذا كان التعامل فى الدوكات بالعد والدنانير بالوزن . ولم تقو الدنانير المملوكية على منافسة الدوكات رغم محاولات تحسين وزنها وعيارها . لكن مما زاد الحال سوءا غمر الأسواق بدنانير مملوكية زائفة وكان يطلق عليها دنانير زغلية . لكن السلطان برسباى للقضاء على عمليات التزييف طلب من البنادقة الأشراف على سك عملتهم فى مصر بدار السك السلطانية . وبهذا قام بتمصير الدوكات . ومنع استعمال الدوكات المشخصة وطرحت عملة من الدينار الأشرفى الذى صنعه البنادقة وكان يطلق عليه الدينار البندقى . ولتشجيع البنادقة على سكه خفض برسباى الضرائب من ١٠٪ الى ٢٪ على سبائك الذهب بعدما كان يدفع على الدوكات ١٠٪ .

وأيام السلطان الغورى كان النشاط التجارى العالمى سائدا فى مصر حتى عام ١٤٩٨ عندما سيطرت البرتغال على التجارة الشرق اقصبة فى الهند والصين . الا انه أتبع أسلوب الغش فى النقود الذهبية والفضية والنحاسية . وسحب كل العملات الذهبية القديمة وصهرها . وكان صناع النقود بدار الضرب يغشون الذهب والفضة بالنحاس والرصاص جهارا أو كما يقول ابن اياس : اتلف المعاملة . وأيام الحكم العثمانى لمصر كانت قوالب سك النقود تصنع فى الاستانة لصنع النقود المصرية وكانت ترسل لدار الضرب التى أصبحت بالقلعة . وكانت النقود العثمانية قد خلت من الكتابات الاسلامية كآيات القرآن أو الشهادة أو التوحيد . وكتب عليها أسماء السلاطين العثمانيين والقاب التشريف لهم . وفى سنة ٩٢٦ هـ/١٥٢٠ م أى بعد دخول العثمانيين مصر بعامين عم الغلاء البلاد وغش العملات الذهبية والفضية ونهب الأتابك العثمانيون الأسواق والحوانيت ٠ وكانت الأسواق تتاجر وتبيع بالنقد من الذهب والفضة . الا أن الوالى العثمانى قد ضرب فضة مغشوشة وكان قد نادى فى أسواق القاهرة بأن من يرد معاملة (نقود الفضة) يعدم . فنزلت الانكشارية من القلعة ومعها صناديق الفضة المغشوشة بالنحاس وكانوا يرمون الأكياس للتجار طالبين دنانير ذهبا بدلا منها . فلو رفض نهبوا دكانه وضربوه . وكانوا يبدلون كل أشرفين فضة نحاسية بأشرفين ذهب (دينار) . وأغلقت الأسواق لأن الصيارفة كانوا يبدلون الدينار بأكثر من اشرفين . وأمر الوالى العثمانى التشهير بهم فى الأسواق وخرم أنوف بعض التجار وعلق الموازين فيها وشنق من بينهم أحد الصيارف على بوابة المتولى .

وأيام حكم العثمانيين لمصر كانت السيطرة للمماليك البكوات . ولما استقل على بك الكبير عام ١١٨٣ هـ/١٧٦٩ م بمصر وكان شيخا للبلد ضرب نقودا فضية أطلق عليها القروش العشرينية (٢٠ بارة) وجعل على وجهها الطغراء (اسم واقب السلطان) وعلى الوجه الآخر اسمه . ولما قضى على حكمه ابطلت هذه القروش وقل سعرها لأن الوالى العثمانى أعاد سبكها . فجمعت من الأسواق بأقل من قيمة وزنها وسعرها الأسمى وخسر الناس كثيرا وربح الوالى فى هذه العملية هو وبقية المماليك الخوارج على على بك الكبير . الا أن نابليون لما جاء مصر ١٧٩٨ أعاد ضرب هذه القروش وراجت فى أيامه . وكانت تضرب بالضربخانة المصرية .

(١٤)

الأعيـــاد والاحتفـــالات

تعتبر الأعياد أحد الصـــور الاجتماعية من حياة القاهرة ـــ من بينها الاحتفالية برؤية الهلال ودوران المحمل . فلقد كان قاضى الولاية منذ أواخر العصـــر الأموى يخرج لرؤية هلال رمضـــان وكان يصـــحبه بقية القضـــاة فى الفســـطاط . وكانوا يتوجهون الى جامع محمود بالمقطع للرؤية حيث كانوا يجلســـون على دكة القضـــاة فوق الجبل ليروا فى ســـماء الفســـطاط الهلال .. وظلت هذه العادة ســـائدة حتى بنى الفاطميون مســـجداً به مئذنة مكان دكة القاضى ليرى الشهور والهلال من فوقها .

وكان الفاطميون يهتمون بالاحتفال برؤية هلال رمضـــان . وكان القضـــاة مهمتهم المرور قبل الاحتفال بثلاثة أيام على مســـاجد القاهرة والفســـطاط للتأكد من تعميرها واضاءتها وتعليق القناديل وفرشـــها بالحصـــر .

وكان الخليفة يخرج من باب الذهب بالقصـــر الكبير بالقاهرة وحوله موكبه من الأمراء والقواد وفى أيديهم الأســـلحة المذهبة والمفضضة حاملين الأعـــلام الملونة وامامهم الموســـيقى . وكان ينضـــم الى هذا الاحتفال بالرؤية التجار والحرفيون بعدما يزينون

دكاكينهم ولاسيما الطريق الذى سيمر به موكب الخليفة الفاطمى حيث يسير فى ساحة بين القصرين الى أن يصل الى باب الفتوح بسور القاهرة ثم يدور الى باب النصر ليتجه ثانية الى باب الذهب بالقصر حيث تنتظره التشريفة أمامه . وكان يسبق الموكب المرتلون للقرآن . ثم يدخل الخليفة القصر ويغير ملابسه . ثم يوزع الدنانير الذهبية . وبعدها يصدر سجل البشارة بحلول الشهر المبارك . ثم تقدم الهدايا من الحلوى فى أطباق بها صرة من الذهب الغرة فى أول أيام رمضان . ثم تقام موائد الافطار من رابع يوم رمضان حتى السادس والعشرين فى قصر الذهب وكان يؤم المائدة وزير الخليفة أو أحد الامراء . ثم يوزع القصر الطعام على الفقراء يوميا وبسخاء وكان يطبخ المطبخ بالقصر .

وكان الخليفة الفاطمى يقيم موائد الافطار يوميا فى جامع عمرو بالفسطاط والجامع الأزهر بالقاهرة . وكان يتلى القرآن وتقام الأذكار ويلقى دروس الوعظ كل ليلة بشرفة القصر . وتوزع الحلوى والعطاء على الحاضرين ليأخذوا معهم .

وكان الثلاث جمع من رمضان يتوجه فيها الخليفة للجامع الأزهر ليؤم المصلين وكان يخرج فى موكبه . وفى كل جمعة يتيمة كان يتوجه الى جامع عمرو بالفسطاط ليصليها هناك . ولما بنى الحاكم بأمر الله جامعه كان يصلى جمع رمضان به . وكان فى كل يوم جمعة يفرش المسجد بالسجاد وتعلق ستارتان على جانبى المحراب عليهما قصار السور ليقرأها الخليفة أثناء امامته للصلاة . وكان مهمة قاضى القضاة تبخير المحراب والمنبر قبل أن يصل الخليفة للجامع . وكان يتجه اليه فى موكب ضخم يسبقه جوقة من المرتلين للقرآن الى أن يصلوا لباب

الجامع فينزل عن فرســـه ويدخل ليســـتريح بالمقصورة الخاصة . واذا حان أذان الصـــلاة . دخل قاضى القضـــاة ودعا الخليفة للصـــعود على المنبر وحوله الوزير والحرس والحاشـــية ، فلما يصـــعد المنبر يجلس تحت قبته ثم يصـــعد اليه الوزير ويقبل يديه ثم يزر على القبة لتصـــبح أســـتارها كالهودج . وكان الخليفة يقرأ الخطبة من ورقة وهو خلفها ولا يراه أحد وكانت هذه الخطبة قد دبجت فى ديوان الانشـــاء وتتضمن المـــدح فى الرســـول وآل البيت الفاطمى . ثم يختمها بالدعاء . بعدها يصـــعد الوزير ويفك أزرار الهودج وينزل الخليفة للمحراب ويؤم المصـــلين فكان يقرأ فى الركعة الأولى ما كتب على الســـتارة اليمنى وبالركعة الثانية ما على الســـتارة اليسرى بعدهما يفرغ من الصلاة ويعود للقصر وسط موكبه .

وكانت صـــلاة الجمعة اليتيمة (الأخيرة) فى رمضـــان يصـــليها الخليفة الفاطمى فى جامع عمر بالفسطاط وكان يزين له الطريق حتى مصـــر القديمة حيث كان يصـــطف على الجانبين الجنود والأهالى وكان يلقى بدنانير الذهب عليهم أثناء ســـير الموكب . وظل جامع عمرو تقام به صـــلاة الجمعة الأخيرة من رمضـــان حتى قيام الثورة عام ١٩٥٢ .

وبعد ســـقوط الدولة الفاطمية أصـــبحت الاحتفالات برؤية هلال رمضـــان ســـمة كل عام . وكان يخـــرج للرؤية قاضى القضـــاة ومعه قضـــاة المذاهب الأربعة ومعهم الشهود ومحتسب القاهرة والتجار والأعيان والحرفيون والأهلى . وكان يشـــاهد الهلال من فوق مئذنة جامع مدرسة الســـلطان قلاوون بالنحاسين أيام المماليك . وكان بعد الرؤية يعودون فى موكب حافل تتقدمه المشـــاعل والشـــموع والقناديل . وكانت الحوانيت تضـــاء ليـــلا .

وفى غرة الشـــهر المبارك كان ســـلاطين المماليك يجلسون فى ميدان القلعة . وكان القضـــاة والأمراء والتجار يأتون اليهم للتهنئة بالشـــهر الكريم . وكان المحتســـبون يعرضـــون عليهم أحمال الدقيق والخبز والســـكر والمواشى التى ســـتقدم كصدقات فى رمضـــان .

وأيام العثمانيين كان موكب الرؤية يخـــرج من أمـــام دار المســـتحفظان الى المحكمة الشـــرعية ويتقدمه والى القـــاهرة وحوله الجنود الانكشـــارية وأمامه الموســـيقى وخلفها الفرسان ويتبعهم عربات مزينة يعرض عليها أصـــحاب الحـــرف حـــرفهم وصـــناعاتهم وكانت تزين هذه العربات بالأعلام . وكانت تطلق المدافع من القلعة احتفالا بحلول شـــهر رمضـــان . وكان هذا الموكب يســـير فى شـــوارع القاهرة الرئيســـية . وظلت هذه المواكب ســـائدة حتى ألغيت أيام الثورة واكتفى بالاحتفال بالرؤية الذى تقيمه دار الافتاء .

وأثناء هذا الشـــهر المبارك كانت تتعطل دواوين الحكومة . وكان المحتســـب يمر بشـــوارع القاهرة والفســـطاط ويحاســـب المفطرين . وكانت المطاعم والمقاهى تغلق بالنهار والخمارات كانت تغلق طوال شـــهر رمضـــان . وكان المســـحراتية يجـــوبون الشـــوارع ليلا يضـــربون على الطبلة يدعون الناس للســـحور . وكانت مآذن المســـاجد تضـــاء بالقناديل من موعد الافطار حتى الســـحور وتطفىء ايذانا للامســـاك عن الطعام .

وكانت صـــلاة العيد تقام خارج ســـور القاهرة فى مصـــلى العيد خارج باب النصـــر . وكانت المصـــلى على ربوة ومبنية بالحجر ولها ســـور وعلى بابه برج . وكان لها محراب تحت قبة

كبيرة وبجواره منبر مكشوف . وكان الخليفة الفاطمى يخرج اليها لصلاة العيد فى موكبه المعهود .وكان يخرج اليها من باب العيد بالقصر . وكان يؤم صلاة العيد . وبعد الصلاة كان يصدر سجل البشارة من ديوان الانشاء ليسجل هذا الحدث .

وكان المصريون يتشاءمون من مجىء العيد يوم الجمعة ويعتبرونه فالا سيئا على السلطان . لأنه فى هذا اليوم يدعى له فى الخطبتين مرتين فى يوم واحد ، وقد عاصر السلطان الأشرف قايتباى أعيادا خمسة أيام جمع ولم يؤثر فيه شىء . ولما أتى عيد الفطر يوم جمعة أيام السلطان الأشرف تشائم المصريون واعتقدوا فيما بينهم بزوال ملكه . لكن لسوء حظه تفشى فى شوال الطاعون وكان يقوم بالقاهرة كل يوم أربعة آلاف جنازة . لهذا (منع اجراء العازات بدق الطارات ولا نائحة تنوح على ميت) .

أما مظاهر الاحتفالات فكانت كثيرة ومتعددة . فأيام الحكم العثمانى كان الوالى والمماليك يقيمون احتفالا سنويا بارسال خزينة المال (الصرة) الى الآستانة وكانت تضم الخراج السنوى المقدر على الديار المصرية . وكان يبلغ ١٥٠ الف قرش سنويا . وكان الصناجة يخرجون بالصرة من القلعة ويحرسونها مع جنود الانكشارية وأمراء المماليك وكانت تنزل من القلعة فوق ٣٠ بغلا وسط دق الطبول .

ومن المظاهر الاحتفالية بالقاهرة الاحتفال بختم صبى لحفظ القرآن فى الكتاب على يد عريفه . فكان أبوه يقيم له موكبا يدور به فى شوارع القاهرة فوق ركوبة لابسا العمامة ومرتديا ثوبا

حريريا وكانت تدق له الطبول وينهال العامة على يديه يقبلونها تبركا به . ويوزع الحلوى والشراب . وكانت النسوة يزغردن له .

أما ختان الصبى فكانت له مظاهر احتفالية بعدما يقوم الحلاق بختانه واضعا فى فمه قطعة سكر حتى لا يصرخ . ثم بعد هذه العملية كان يرتدى جلبابا جديدا ويدار به فوق حصان فى الشوارع بالحى حتى يصل للمسجد وحوله باقات الزهور ويقدم الحلوى والطعام له وللحاضرين ويوزع عليهم الشربات . وكان المماليك ينفقون ويسرفون على حفلات ختان أبنائهم . فكانوا يقيمون الزينات بالشوارع ويدعون المغنيين والمغنيات لامتاع الناس وينقلب الليل فى هذه الحفلات نهارا كما يقول ابن اياس . ففى سنة ٦٦١ هـ/١٢٦٣ م . ختن السلطان بيبرس ولده الملك السعيد (ورسم للأمراء والجند وبقية الرعية أن كل من له ولد فليطلع به الى القلعة حتى يختن مع ابن السلطان . فأحضر الناس أولادهم فبلغ عددهم نحو ١٤٥ ولدا خارجا عن أولاد الأمراء والأعيان . فرسم لكل واحد منهم بكسوة على قدر مقام أبيه وأما أولاد الحرافيش فرسم لكل واحد منهم بكسوة ومائة درهم ورأس غنم . واستمر المهم (الاحتفال) عمالا فى القلعة سبعة أيام .

وفى عام ١٦٩٦ م أيام الوالى العثمانى اسماعيل باشا ختن ابنه وكان عمره ١٥ سنة . فدعا لحفل الختان كل وجهاء القاهرة والأقاليم وأعلن كسوة كل من يختن مع ابنه واستمر الاحتفال عشرة أيام بالقاهرة . حيث كانت . سباقات الخيل وعروض المهرجين والبهلوانات . وكانت هذه أيضا مناسبة الاحتفال بمولود السلطان بالآستانة الذى سماه محمود . وزينت أسواق القاهرة وضربت المدافع من القلعة .

وكان احتفال الختان قد بدأ يدق الطبول وضـــرب المدافع وصـــــعد الوجهاء بقصـــر الباشـــا وفى وســــــط فناء القلعة كان يوجد خيمتان احداهما للراقصـــات والموســـيقيين والثانيـــة لضـــاربى الدفوف والطبول والأبواق . وعند ختان صـــبى كان تضـــرب له تحية ســـلام أما ابن الباشـا فلقد لبس ملابس فاخرة وغيرها فى الحفلة أربع مرات .

وأزينت القاهرة ليلتها وطوال ليـــالى الاحتفـــال بمائة ألف قنديل . وكان يوزع الطعام على الفقراء فى الأحياء طوال الأيام العشـــرة من الاحتفال . وقد ختن فى أول يوم ٥٠٠ صبى بعدهم ختن ابراهيم ابن الباشا وبعدها نزل على حصـــان من القلعة وأمامه وحوله فرســـان التشـــريفة وســـار حتى وصـــل جامع أحمد بن طولون . وكانت الدنانير الذهبية تلقى على الجمـــاهير المحتشـــدة لمشاهدة الموكب . ورفض الباشا قبول الهدايا المعتادة فى هذه المناسبات .

وكان المدعوون للاحتفالات مقيمين عشـــرة أيام بالقلعة يقدم لهم فيها افخر الأطعمة . وكانت القاهرة رغم هذه المظاهر الاحتفالية والبذخ فى القلعة التى شـــهدت قبل الحفلة بعدة شـــهور ثورة الجياع عندما وقفوا بحوش الديوان يطالبون بالخبز ، ونزلوا الى الرميلة ينهبون مخازن قمح الأمراء وكتخدا . وأتى أهالى الأرياف الى الأزقة يأكلون الجيف ومات الكثيرون جوعا هكذا قال الجبرتى . فى أحداث سبتمبر ١٦٩٥ م .

ومن العادات اقامة ســـبوع المولود وهذه عادة كانت قائمة ومازالت حتى اليوم وهو عبارة عن حفل يقام بعد اســـبوع من ولادة المولود حيث يضـــاء البيت بالشـــموع ويقـــدم الحـــلوى

والهدايا والطعام للمهنئين وفى هذا اليوم كان يطلق عليه اسمه . واذا كان المولود ذكرا زين له ابريق ولو كان أنثى زينت لها قلة . وكان هناك مراسيم تدار احتفالا بالسبوع .

واهتم القاهريون بالعرس وهو من أهم الاحتفالات الشعبية حيث كانت العروس تتحفى بالحنة والزعفران قبل أن تستحم فى حمام عام وكانت تذهب مع صديقاتها للاستحمام به والتزين فيه بواسطة الماشطة والبلانة وتقوم الجوارى بتدليك جسمها . وكانت تطلق الزغاريد وتدق الطبول وتردد الأغانى التى تعبر عن الفرح .

وقد وصف المقريزى أحد أفراح القصور والسلاطين . فوصف احتفال السلطان الناصر بن قلاوون بزفاف ابنه الأمير أنوك : فقال : أمر السلطان احضار جميع من بالقاهرة ومصر (الفسطاط) من أرباب الملهى الى الدور السلطانية . ووقع الشروع فى عمل الخوان (البوفيه) فأقام المهم سبعة أيام بلياليها . فلما كانت ليلة السابع منه جلس السلطان على باب القصر وتقدم الأمراء على قدر مراتبهم واحدا بعد واحد ومعهم الشموع . فاذا قدم الواحد ما أحضره من الشمع قبل الأرض وتأخر ومازال السلطان بمحله حتى انقضت تقادمهم . فكانت عدتها ثلاثة آلاف شمعة زنتها ثلاثة آلاف وستون قنطارا . حتى اذا كان آخر الليل نهض السلطان وعبر حيث مجتمع النساء . فقامت نساء الأمراء بأسرهن ، وقبلن الأرض واحدة بعد أخرى وهى تقدم ما أحضرت من التحف الفاخرة والنقوط . حتى انقضت تقادمهم جميعا . ورسم السلطان برقصهن عن آخرهن . فرقصن أيضا واحدة بعد واحدة . والمغانى تضرب بدفوفهن . وأنواع المال من الذهب والفضة وشقق

الحرير يلقى بها على المغنيات فحصـــل لهن ما يجل وصـــفه . ثم زفت العروس .

وهذا الفرح ذبح فيه مواشى وأوز ودجاج عشـــرين ألف . واســـتهلك فيه ســـكر ثمانية عشـــر ألف قنطار لعمل الحلوى والمشـــروب .

ووصـــف المقريزى جهاز (شـــوار) العروس قائلا يتضمن شـــوار العروس دكة نحاس مكفت . وهذه الدكة كانت تشـــبه الســـرير وهى من الخشـــب المطعم بالعاج أو الأبنوس وقد يبلغ ثمنها ۲۰۰ دينار ذهبا . واذا كانت العروس من بنات الأمراء أو الأعيان فتجهز بســـبع دكك . وكل دكة يوضـــع فوقها طاسات من النحاس الأصـــفر المكفت بالفضـــة ودســـت (أوانى) من ســـبع قطع مختلفة الأحجام . وقد يصـــل حجم الدســـت ما يسع أردب قمح وهو من النحاس .

وفى ليلة الدخلة يتجه العريس لمنزل العروس فى زفة كبيرة حوله الأهل والأصـــدقاء حيث يصـــل بيت العروس الذى يقام فيه الحفل وتحييه جوقة من المغانى . وترى المدعوات يلبســـن أفخر الثياب ويزغردن ويفاخر المدعوون بتقديم النقوط للمغنيات والهدايا لأم العروس . وعادة تكون شـــموعا وتحفا فاخرة وخرافا وسكرا وأرزا ودقيقا وسمنا وطيورا .

وكان من مظاهر الاحتفالات الســـنوية الاحتفال بكســـر الســـد عند فم الخليج بمصـــر القديمة وكان هذا الاحتفال بوفاء النيل . فكان يحضـــره الســـلطان أو الوالى العثمانى . وكان يتوجه الســـلطان بموكبه وحوله العسكر والأمراء وينزل من على فرســـه حيث أقيمت الزينات ثم يقوم بضـــرب فأســـه بالســـد فتغمر المياه الخليج وتظل هذه الاحتفالات بعده ســـبعة أيام ..

وكان مكان الاحتفال فى جزيرة الروضة قرب مقياس النيل . وكان الأهالى يركبون المراكب ويزينوها ويشعلون القناديل فوقها ليلا . وينزل الأطفال عراة فى النيل . وهناك كانت تعقد أسواق فيها الباعة والحواة . وتغمر مياه الفيضان بركة الازبكية التى كانت منتزها للقاهرة وبركة الحبش جنوب الفسطاط كانت تموج بالمراكب يتنزه بها أهل القاهرة ، وكان المماليك كعادتهم يخرجون بخيامهم ونسائهم وأطفالهم ويقيمون على شاطىء النيل يأكلون ويشربون ويقيمون الموائد احتفالا بالنيل .

وقد وصف ناصر خسرو فى (سفرنامة) هذا الاحتفال فقال : هذا اليوم من أعظم الأعياد فى مصر ويسمى عيد ركوب فتح الخليج . لأن السلطان ينصب على رأس (فم) الخليج سرادق عظيم من الديباج الرومى وموشى كله بالذهب ومكلل بالجواهر . ويسير فى ركاب السلطان عشرة آلاف فارس على خيولهم سروج مذهبة . يبين خسرو أن كل جيش الخليفة الفاطمى كان يخرج للاحتفال . ومعهم الأدباء والشعراء والفقهاء . ويضرب الطبل والمزمار وينفخ فى الأبواق . ويسير مع الخليفة حامل المظلة راكبا حصانه وكان الخدم يسيرون على جانبيه بالمباخر وفى معيته قاضى القضاة .

ويقول خسرو : فى هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج وتجرى فيه أنواع الألعاب العجيبة . وكان ناصر خسرو شاهد عيان .

وابن ظهيرة لم يفته وصف كسر الخليج فى (محاسنه) فيقول : يوم مشهود يركب له السلطان أو نائبه مع أمراء واركان الدولة من قلعة الجبل الى الرميلة ثم الصليبة فمناظر

الكبش (منظرة) الى أن يدخل مصــر العتيقة تجاه دار النحاس على شــاطىء النيل فينزل هنــاك الســلطان بالحــراقة (سفينة) وينزل من معه بالذهبية (مركب مزينة بالذهب) وهناك مراكب شــتى وحراريق لا تكاد تحصــر مزينة . ثم تســير الحراقة بالســلطان وتلك المراكب كلها . فيشــق بحر النيل الى أن ينتهى الى الروضــة آخر الــكلام . ثم يعود الســلطان . فيقطعون ذلك الكوم (الســد) فى أقل من دقيقة ثم يكسر راجعا الى القلعة المنصورة .

وكان يطلق على الســد خلف فم الخليج اسم « الســد البرانى » وكان يقوم بعض الســلاطين بمعول من الذهب الخالص ويضــرب السد ثلاث ضــربات . ويأخذ الناس بفؤوســهم يحفرون فيه حتى يجرى الماء للخليج . ويقال أن الفراعنة كانوا يحتفلون بهذا العيد ويسمونه يوم الزينة .

وكان الأقباط يحتفلون بعيد الشــهيد فى شــهر بشنس (قبطى) وكانوا يغســلون فيه (اصبع الشهيد) وهى اصبع أحد قديسيهم . وكان جميع أهل القاهرة والفسطاط يخرجون هذا اليوم للنيل حيث تقام الخيام . ويمتد الاحتفال لمدة ثلاث ليال حيث الرقص والخمر واللهو البرىء والغير برىء وكما يقول المقريزى : ولا يبقى مغن ومغنية ولا رب ملعون ولا بغى ولا مخنث ولا باض ولا خليع ولا فاسـق ولا فاتك الا ويخرج لهذا العيد . الا ان بعض ســلاطين المماليك أبطلوه لما كان فيه من معاص .

وكان أيام عصــر المماليك قد ظل عيد الفيروز يقام سنويا وهو عيد فارسى . وكان فى أول شــهر توت ويوافق راس السنة القبطية وهذا العيد قد فرضــه الفرس أيام حكمهم لمصــر لأن عيد النيروز عندهم يوافق ٢١ مارس وهو عيد الربيع هناك . وايام

المماليك كان هذا العيد كما وصـــفه المقريزى من الأعياد القومية المصـــرية التى كان يتحرر فيها المصـــريون بشتى طوائفهم من روتين الحياة . فكانت الشوارع مدعاة للمرح والتهريج البرىء . فكانوا يتراجمون بالبيض ورش الماء ويؤكل فيه البطيخ والخوخ والزلابية والهريســـة . وكان الناس يتبادلون هذه الأصـــــناف من الحلوى التى كانت تصنع فى البيوت . وكانت الأســـــواق والمدارس تغلق فى هذا اليوم . لكن هذا العيد بدأ يختفى منذ عصـــر المماليك الشـــراكسة . فعندما تســـلطن الســـــلطان برقوق أمر بابطاله وهدد من يحييه أو يفعل ما يفعل فيه بالشـــنق فأبطل هذا من القاهرة منذ عام ٧٨٧ هـ/١٢٨٧٥ م . ويصف ابن اياس رغم تحسره على ابطاله ما كان يقام فى هذا اليوم بقوله : أنه كان يجتمع فى هذا اليوم السواد الأعظم من الأســـــافل . فيقفون على أبواب الأكابر من أعيان الدولة . فيكتب أمير النيروز وصـــولات بالجمل (الأموال) الثقـــال وكل من امتنع من الأكابر بهدلوه وســـبوه ســـبا قبيحا ولايزالون مترســـمين على بابه حتى يأخذوا منه ما يقررون عليه من الدراهم . فيأخذون ذلك منه غصبا ويمضون . وكان (العياق يقفون فى الطرقات يتراشـــــون بالماء البخس ويتراجمون بالبيض النىء فى وجههم ويتصافعون بالأنطاع والأصفاف .. وكل ممن ظفروا به فى الطرقات بهدلوه) .

(١٥)

طلعـــة المحمـــل

من المظاهر الاحتفالية الكبرى فى القاهرة دوران المحمـــل وطلعته . ولقد وصـــف ابن ظهيرة دوران المحمـــل الشـــريف المتوجه الى بيت الله الحرام وزيارة قبر الرســـول . فقال : من شـــهر رجب فى كل عام بعد النداء بين يدى مصر القاهرة ثلاثة أيام . فيدور المحمل فى اليوم الرابع ومعه كسوة الكعبة المشـــرفة مقام سيدنا ابراهيم الخليل عليه الســـلام بالحجرة الشـــريفة . كل ذلك من الحرير المذهب المنمق النفيس . ثم يمرون بذلك من باب القاهرة الى الرميلة (ميدان القلعة) تحت القصـــر بقلعة الجبل تجاه باب السلسلة لينظره الســـلطان وهو بالخرجة (منصة) من القصـــر ومعه القضـــاة الأربعة ونوابهم والأعيان وســـائر فرق الفقراء (الصـــوفيين) بأعـــلامهم وطبولهم . فيقبل جمله (جمل المحمل) الأرض (يبرك) للســـلطان ثم يمضـــون الى مصـــر العتيقة وهى مزينة كذلك ثم يعود للقاهرة . ويقوم الجنود بالاســـتعراض العســـكرى ومعهم الفرســـان يستعرضون العابهم بالرمح والقبق .

ووصف ابن بطوطة عرض المحمل فى شهر رجب للاعلان عن قرب الخروج فى شوال بطلعة المحمل للحجاز . فوصف دوران المحمل بأنه يوم مشهود حيث كان القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة . ويقصدون جميعا باب القلعة . وكان وصف ابن بطوطة لما شاهده فى عصر الناصر أحمد ابن الناصر قلاوون . ويضيف : فيخرج اليهم المحمل على جمل وأمامه الأمير المعين لسفر الحجاز فى تلك السنة (كان يعينه السلطان ويلقب بأمير الحج) . ومعه عساكره والسقاؤون على جمالهم .. ثم يطوفون بالمحمل بمدينة القاهرة ومصر والحداة يحدون أمامهم ، ويكون ذلك فى رجب . فعند ذلك تهيج العزمات وتتبعث الأشواق وتتحرك البواعث ويلقى الله تعالى العزيمة على الحج فى قلب من يشاء من عباده فيأخذون فى التأهب لذلك والاستعداد) .

فاذا كان دوران المحمل فى شهر رجب للاعلان عن الاستعداد للطلوع للحج . فان أيام العصر الفاطمى كان يكتفى فى منتصف رجب بقراءة مرسوم الخليفة فى المساجد يقول فيه : يامعشر المسلمين حل موسم الحج وسيجهز ركب السلطان كالمعتاد وسيكون معه الجنود والخيل والجمال والزاد .

وكان ينادى مرة ثانية فى رمضان ، وأيام العصر الفاطمى كانت الكسوة كما يقول ناصر خسرو ترسل للكعبة مرتين سنويا .

ويصف الجبرتى موكب المحمل عند خروجه للحجاز فقال فى أحداث ١٧٧٩ م « عمل موكب المحمل وخرج الحجاج وأمير الحج مراد بك . وخرج فى موكب عظيم . وماجت مصر وهاجت فى أيام خروجه بسبب الاطلاب وجمع المال وطلب الجمال والبغال

والحمير . وغصبوا بغال الناس ومن وجدوه راكبا على بغلة أنزلوه عنها واخذوها منه قهرا » .

وكان حج عام ١٧٨٤ م قد حدث فيه مشــكلة فبعد خروجه من القاهرة رفض أمراء المماليك ولاسيما مراد بك وابراهيم بك دفع الميرى لصــرة الحج . الا أن مراد بك وكان نائب شيخ البلد اضــطر (لتشــهيل الحج) وكان الموكب حقيرا جدا بالنسبة للمواكب المتقدمة . هكذا قال الجبرتى .

وفى محمل الحج عام ١٧٨٦ م . وقف العرب للحجاج فى طريق المدينة المنورة وحاربوهم ســبعة أيام وجرح أمير الحج محمد بك المبدول . ويقول الجبرتى : نزل الحجاج ودخلوا مصر على حين غفلة وهم فى أسوأ حال من العرى والجوع ونهبت جميع أحمال أمير الحج وأحمال التجار وجمالهم واثقالهم وأمتعتهم . وأسر العرب جميع النســاء بالأحمال .. واســتغاث الحجــاج بأحمد باشا الجزار أمير الحج الشامى . فتكلم مع العرب فى أمر النساء فأحضروهن عرايا ليس عليهن الا القمصــان . وكان هذا بسبب ســوء تصــرف أمير الحج لأنه لما دفع العوايد للعرب أخذ منهم رهائن أربعة منهم كالعادة الا أنه كواهم بالنار فى وجوههم . فبلغ ذلك أصــحابهم وقطعوا على المحمل الطريق) .

« وعند عودة هذا المحمل المنكوب زور محمل من المحــامل القديمة وأتبع رجوعه بالكذب . لكن بعد عدة شــهور أنتدى رجل من الأشــراف المحمل وأرســله الى مصر . ودخلوا به من باب النصــر وأمامه الأشــاير والطبول والزمور والشــريف ســرور راكب أمامه » .

وكان من الأمور المعتادة ســنويا وصــول ركب الحجاج الفاسى والأندلسى والتونسى والجزائرى والليبى . وكانت مدينة

الفسطاط مؤهلة لوفود هؤلاء الحجاج قبل انشاء القاهرة . وظلت قوافل حجاج أهل الأندلس تصل اليها سنويا بانتظام حتى سقوط بلادهم عام ١٤٩٢ م فى أيدى الفرنجة . وكان ينضم لموكب الحج المغربى مواكب الحج من غرب أفريقيا والأندلس فى مدينة فاس بالمغرب . وكانت هذه المواكب تسير برا باتجاه القاهرة لتصل الوفود اليها فى شهر رمضان وكانت بعض القوافل تصل بحرا الى الاسكندرية لتصل الى القاهرة والفسطاط عبر النيل . وهذه السياحة الدينية كانت تنعش اقتصاد مصر ولا سيما خلال شهر رمضان قبل طلعة المحمل ، وفى شهر صفر عند عودته للقاهرة . وكانت هذه المحامل تنضم للمحمل المصرى كل عام وتسير فى حمايته) .

وكانت القاهرة والفسطاط تستعد قبل شهر رمضان لاستقبال هذه الوفود وكانت السلطات تعمل على راحتها وحسن استقبالها وتذليل العقبات لها . وكان السلاطين يستقبلون كبار الزوار وينزلونهم فى ضيافتهم طوال اقامتهم بالقاهرة . وكان من بينهم ملوك وأمراء وكبار علماء لتعزيز الروابط بينهم .

وكانت وفود مواكب الحج تدخل ديار مصر وثغورها بلا قيد ولا شرط وقد أعفيت من اى رسوم أو جمارك او مكوس . وكانت التجارة التى مع التجار بالموكب معفاة تماما من الضرائب والجمارك حتى لو باعوها بأسواق مصر . لهذا كان الحجاج يحملون معهم ما خف وزنه وغلا ثمنه . وفى ميناء بولاق كانوا يدخلون القاهرة بلا تفتيش . وكان سلاطين المماليك حريصين على اظهار الود والتكريم للقادمين ولاسيما وأن الخلافة العباسية كانت قائمة بينهم فى القاهرة . كان المماليك حريصين على أن يظهروا بأنهم حماة الاسلام .

فكان ابتداء من منتصف شهر رمضان من كل عام تنهال الوفود الأفريقية على القهرة وكان الوافدون برا يصلون من صحراء وادى النطرون الى امبابة متحاشين دخول الاسكندرية وفى امبابة كان يتركون دوابهم لتستريح هناك أو تباع فى أسواقها وكان الحجاج يكثرون دوابا أخرى أو يشترونها قبل طلوع المحمل لتواصل الرحلة . أما الذين جاءوا بحرا فعند وصولهم للقاهرة والفسطاط كانوا يجهزون ركبهم استعدادا للسفر . وكان التجار المغاربة ينزلون أثناء اقامتهم بمصر فى الوكالات وغيرهم كانوا يتوجهون الى حى جامع ابن طولون الذى يأويهم ولاسيما وأنه قريب من الرميلة حيث كان يباع الجمال والبغال ولوازم السفر . وكان الفقهاء والعلماء يسكنون حى الأزهر بجوار الجامع ليترددوا عليه ويستمعوا للدروس به أو يلقوا دروسهم فيه .

وكان فقراء الركب ينزلون بجامع ابن طولون ويعسكرون بخيامهم حوله أو ينزلون بجامع ببولاق . وكان من عادة المغاربة وهم بالقاهرة زيارة الأضرحة والأولياء . وهم مالكيو المذهب وكانوا متشددين دينيا .

ومن عادتهم كل عام المشاركة فى حمل كسوة الكعبة أثناء دوران المحمل بشوارع القاهرة ليتبركوا بها . وكان المغاربة لأنهم مالكيون يصطدمون عندما يلاحظون منكرات شرعية بالشوارع ولاسيما التدخين . ففى سنة ١١١٠ هـ/١٦٩٨ م كانوا يضربون كل من يدخن الدخان فى طريق مرورهم بشوارع المدينة . ففى هذه السنة شهدت القاهرة واقعة المغاربة كما يصفها الجبرتى عندما رأوا رجلا من اتباع الكتخدا يدخن (الشبشة) فكسروا أنبوبته وتشاجروا معه وشجوا راسه . وكان فى مقدمتهم طائفة منهم متسلحون وزاد التشاجر

واتسعت القضية وقام عليهم أهل السوق وقبض عليهم وسجنهم الباشا فى العرقانة حتى سافر الحجاج .

وكان المغاربة الذين سكنوا حى بولاق على النيل قد شاهدوا العساكر القليونجية (من المماليك) ومعهم النساء يتعاطون المنكرات الشرعية . فنهاهم المغاربة وخصوصا أنهم فى شهر رمضان عن فعل القبيح أو يتباعدون عنهم (فضربوا عليهم طبنجات فثار عليهم المغاربة . فهرب القليونجية الى مراكبهم فنط عليهم المغاربة خلفهم واشتبكوا معهم ومسكوا من مسكوه وذبحوا من ذبحوه ورموه الى البحر (النيل) وقطعوا حبال المراكب ورموا صواريها وحصلت زعجة فى بولاق تلك الليلة وأغلقوا الدكاكين وقتل من القليونجية نحو عشرين ومن المغاربة دون ذلك) . هكذا قال الجبرتى فى عرضه لأحداث رمضان ١٨٧١ م . وكانت هذه الحادثة سببا فى اجلاء المغاربة من القاهرة الى العادلية · هددوا كل من يأويهم بالعقاب · وفى سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م منع المماليك البكوات المغاربة من دخول القاهرة . وسمحوا لمن يدخلها لقضاء حاجة أن يكون بلا سلاح . ونزلوا فى بولاق . حيث انتقلت اليهم الأسواق . وعند وصول الركب الفاسى للقاهرة كانت المدينة يعمها الرواج وترتفع ايجارات المساكن ولا سيما التى حول الجامع الأزهر . وكان السماسرة يستقبلونهم فى بولاق بعد عبورهم من امبابة ليعرضوا عليهم خدماتهم .

وفى عام ١٢١٣ هـ/١٧٩٩ م . كان أول احتفال بموكب الكسوة الشريفة أيام الفرنسيين . ونودى بالأسواق بخروج المحمل من قرة ميدان (ميدان القلعة) ويقول الجبرتى : فمروا بذلك أمام (الكسوة) الوالى والمحتسب وعليهم القفاطين والبينشات (ملابس) وجميع الأشاير بطبولهم

وزموزهم وكاســـاتهم) . وكان معهم بارتمللى مستحفظان القاهرة (حكمدار) وأمامه عســـاكره من الأروام بالأســـلحة . وكان الموكب بضـــم ناظر الكســـوة . وكانت الكســـوة تنسج بالقلعة بدار الطراز الا أن هذه السنة نسجت ببيت مصطفى كتخدا . ولم تبد على أهالى القاهرة اى فرحة لأنهم مستعمرون . وكان نابليون وقتها بيافا . ولم يحضـــر المغاربة الى القاهرة كالعادة لأن مصر محتلة . وأصـــاب الكســـاد الأسواق ولم يعم بالقاهرة الرواج .

وأيام المغاربة يصـــف الزيانى المؤرخ المغربى رحلته للقاهرة بقوله : كان هناك فضـــاء واســـع خارج قلعة الجبل فيه تباع الابل والخيل وســـائر الدواب . وبه يوجد غالب ما يحتاجه الحاج من الأثاث والأمتعة وتنصـــب فيه أيام الموســـم أراحى متعددة لتدشيش الفول يديرها الرجال بأيديهم مع كبرها .. يطحن الرجلان ارادب متعددة فى يوم واحد فتكون بالرميلة صبر من الفول المدشش كل صـــبرة تزيد على المائة أردب ومن هناك يكيل غالب الحجاج ارادب متعددة فى يوم واحد فتكون بالرميلة صبر من الفول المدشش علفا للدواب أثناء رحـــلة المحمل حيث كانت الرميلة يبـــاع بها الدواب للحجاج . وكان الحجاج المغاربة يتحاشـــــون دخـــول القاهرة لو كان بها وباء أو مجـــاعة أو اضـــطرابات . فيظلون بالقرى حول امبابة لحين موعد طلعة المحمل . وأيام الفرنســـيين منعوا من الدخول للقاهرة لأن أهلها اشـــاعوا أن المغاربة قادمون للجهاد . فعزلهم الفرنســـيون من الأســـلحة ومنعوا دخـــولهم المدينة . وجعلوهم يمرون للعادلية وهناك سلموهم أسلحتهم بعد مفاوضـــات مضنية لأنهم قالوا : أن هذه الأســـلحة لحراســـة موكب الحجاج .

وكانت رحـــلة الحج تســـتغرق أربعة شـــهور من شـــهر شـــوال وحتى صـــفر . وكان موكبه يراســـه أمير الحاج المصرى

ومعه قوات لحمايته من قطاع الطرق وعرب الدرب الذين يقيمون على طريق الحج . وكان جزء من القافلة يتجه بالبحر من ميناء عيذاب بجنوب شـــرق مصـــر وكانت الرحلة البحرية أقل مشـــقة وأمنا وأقصـــر وقتا الا أنها أكثر خطورة لتعرض المراكب للغرق . وكانت تبحر نهارا وترســـو ليلا خشـــية الارتطام بالشـــعاب المرجانية بالبحر الأحمر وظل هذا الركب المغربى والليبى والجزائرى والتونسى والأفارقة يأتون ســـنويا للقاهرة فى موسم الحج حتى افتتحت قناة الســـويس عام ١٨٦٩ م للمـــلاحة العالمية واحتلت فرنسا تونس والجزائر والمغرب وكانت ســـفنها تحمل الحجاج بحرا وتعبر بهم القناة الى جدة بالحجاز . والغى دوران وطلعة المحمل مع الثورة وكان يطلع من العباســـية بالقطار الى السويس ومن هناك تحمل البواخر الحجاج وكان قطار المحمل يســـتقبله الأهالى بالزغاريد على طول الطريق وكان يجرى احتفال بالسويس لطلعة المحمل النبوى الى الســـفينة . لكن الآن الصـــورة تغيرت مع الزمن والطائرات والعبارات .

(١٦)
قاهـــرة البـــكوات

بعد دخول العثمانيين مصـــر عام ١٥١٨ م هادنوا المماليك ولا ســـيما أيام الســـلطان العثمانى سليمان القانونى الذى سمح للمماليك بالاحتفاظ بامتيازاتهم . وكان هدفه من هذه المهادنة منعهم من تشـــكيل قوة تقوم بالتمرد أو الثورة ضـــد الســـلطنة العثمانية الا أنهم كثروا عن شـــراء المماليك وأصبح كل أمير له مجموعته وأطلق على نفســـه لقب بك . وأصبح هؤلاء البكوات يحكمون مصر والقاهرة . واســـتطاعوا عزل الوالى الباشا داخل القلعة التى كان يطلق عليها ديوان مصـــر الذى لم يكن له حول ولا قوة ســـواء مع الحامية التركية أو معاونيه أو مع أمراء المماليك . الذين أصبح زعيمهم يســـمى بشـــيخ البلد وهو الحاكم الفعلى للبلاد يجبى الأموال ويقدم الصـــرة سنويا للآستانة .

وكان لكل وال عثمانى جديد مراســـم احتفال خاصـــة . فلو جاء بحرا للاســـكندرية كان كتخدا المدينة يســـتقبله فى الثغر ويســـافر الى رشـــيد ومنها يركب المركب الى القاهرة بالنيل . وعلى طول الطريق تســـتقبله النســـوة بالزغاريد على الشاطئين الى أن يصـــل الى الوراق ويبيت ليلته هناك ثم يعبر النيل لبولاق

حيث تقام له احتفالات الاستقبال ويسير فى موكب من الخيول والجمال المزينة وهو فوق حصانه ويمر بشوارع القاهرة وحوله مشاة الانكشارية والمماليك والجنود السباهية فوق جيادهم حيث يصل الى مكان الاحتفال بميدان القلعة وتقام له الموائد يحضرها الأمراء والأعيان . ولو كان قدومه لمصر برا من الشام فيصل الخانكة ويبيت فيها ثم ينزل القاهرة فى موكبه صباحا ثم يزور الامام الشافعى قبل أن يطلع للقلعة حيث مقر الوالى .

وكان لعزل الوالى مراسيم خاصة متبعة . فيصل مندوب السلطان للقاهرة . ووصوله معناه عزل الباشا . وكان يتوجه الى القلعة ويجتمع بالوالى وأمراء المماليك البكوات . وعندما يدخل قاعة الديوان يلقى بالفرمان بجانب من القاعة وهذا معناه عزل الوالى . بعدها يقوم (البكوات) بمحاسبته ويطالبونه بالأموال التى أخذها منهم وكان الوالى المعزول يخرج من القلعة ليعود لبلاده أو الى المكان الجديد الذى عين فيه .

وكان الولاة يعينون بالرشوة لحاشية السلطان فى الآستانة . وكانت الولاية لمن يدفع أكثر دون مراعاة لقدرات الوالى أو كفاءته . وكان عادة التجار الفرنسيين فى مصر هم الذين يدفعون هذه الأموال لمن يختارونه حتى يسهل لهم أمورهم بها ويحميهم من ظلم المماليك . وكانت سياسة الباب العالى عدم استمرار الولاة فى ولاياتهم حتى لايقووا ويتمردوا أو يستقلوا بالولاية .

وكان الرحالة أندريه تيفيه قد زار مصر العثمانية عام ١٥٥٠ م أى بعد دخول العثمانيين باثنين وثلاثين سنة . فبين ضمن ملاحظاته أن الأتراك كانوا هم الطبقة الحاكمة الا انهم

كانوا محتفظين بلغتهم التركية . وقال أن المصريين أفضل منهم فى حسن المعاشرة .

وشهدت القاهرة نشاطا دينيا فلقد شاعت الطريقة البكتاشية (الباشية) وهى طريقة الدراويش وقد كانوا منتشرين بالقاهرة بشكل ملحوظ بملابسهم الغريبة . فكانوا يرتدون جلود النمور والأسود وأحزمة من جلد الثعابين ويضعون ريشا ملونا فوق رؤوسهم .

وكان بالقاهرة قنصل لفرنسا وقنصل لليونانيين .. وكانت قنصلية فرنسا تؤجر من فرنسا لمن يدفع أكثر . وكان التجار الفرنسيون يرشون الوالى العثمانى حتى لا يقبل تعيين قنصل لهم لا يريدونه ويوافق على القنصل الذى يرشحونه له . وغيرت الحكومة الفرنسية طريقة تعيين قنصلها بالقاهرة عام ١٦٨١ فجعلت القنصل موظفا لا يشتغل بالتجارة وكان يتبع السفير الفرنسى بالآستانة . وقد حصل التجار الفرنسيون على امتيازات جمركية من الباب العالى بتخفيض الجمارك لهم من ١٠٪ ببولاق و ٢٠٪ بالاسكندرية لتكون ٣٪ فقط .

وكان الوالى فى القرن ١٦ حاكم ولاية مصر التى كانت أكبر الولايات العثمانية وكانت له سلطات مطلقة حتى أصبح يعين بالرشوة فى الباب العالى . وكانت وظيفته عقد الاجتماعات بالديوان بالقلعة وحضور الاحتفالات الدينية واحتفال وفاء النيل وارسال الصرة بالآستانة ودوران المحمل .

وفى القرن ١٨ فى عصر المماليك البكوات كانت الخرائب تحيط بالقاهرة وكان بها أحواش متناثرة يعيش فيها الأهالى وسط المزارع والنخيل . وكانت بولاق ميناء تجاريا بها الشون والوكالات

وبعض البيوت والحمامات والأسواق وجبانة . وكان يصلها بالمقس (باب الحديد) طريق على جانبيه البرك والمستنقعات وعلى جانبيه توجد بعض الحوانيت والمقاهى . وكانت الأزبكية تضم الأفرنج ويعبر اليها بواسط قنطرة . وكان شارع الموسكى ينتهى عند حى الأفرنج الثانى على الخليج وكان يطلق عليه خط الفرنساوية وبه كان بيت القنصل الفرنسى ويطل على الخليج . وكان للمماليك بيوت حول بركة الأزبكية وكانت السيول تداهم القاهرة من جبل المقطم أثناء المطر وكانت تغمر المنطقة التى حول بابى الفتح والنصر وجامع الحاكم بأمر الله .

وكانت منطقة باب اللوق عبارة عن برك ومستنقعات وبجانبها جبانة وشرقها حدائق كانت للتنزه وبعد الجبانة كان حى السيدة زينب وكانت المساكن قد بنيت به فوق انحدار جبل يشكر . وكانت القلعة أمامها ميدان (قرة ميدان) الممتد حتى جامع ابن طولون بالرميلة . وكانت القلعة مهملة وتداعت أسوارها وكانت مقر سكن الباشا والحامية الانكشارية .

أما مصر العتيقة التى تضم الفسطاط تركزت البيوت بها حول جامع عمرو وعلى النيل وفى غربها اقام المماليك قصورهم واصبح بين الفسطاط والقاهرة خرائب مهدمة .

وكان بالقاهرة المذابح السلطانية على أطرافها وكان يذبح فيها الذبائح وتحصل عليها الرسوم المقررة على كل ذبيحة وكان شرب الخمر أيام الجبرتى شائعا وتدخين الحشيش سائدا فى كل بيت وشارع وحارة حتى النسوة كن يدخن الحشيش فى المشربيات بلا حياء وهن يتطلعن للمارة .

وكان هم الباب العالى من مصر صرة الأموال والخراج . فلما تحايل ابراهيم بك شيخ البلد ونائبه مراد بك عام ١٧٨٦

ولم يدفعوا الأموال السلطنة . مما جعل الآستانة ترسل رسلا للقلعة ومعهم مكاتبات قرئت وفيها كما يقول الجبرتى : طلب الخزائن المنكسرة (عدم دفع الأموال) وتشهيل مرتبات الحرمين (الصرة الحجازية) من الغلال والصرر . وأعطى الخطاب مهلة ثلاثين يوما .

وكان أمير الحج المصرى الأمير مصطفى بك قد منع زيارة الحجاج المصريين للمدينة عام ١٧٨٥ لأنه نهب عوائد العربان هناك . وطلب منه دفع هذه الأتاوات فرفض . فأخذ عليه شريف مكة اقرارا بأن المماليك بمصر لم يوفوه أموال المدينة وكتب محضرا بخطه ووضع عليه خاتمه . ولما عاد أمير الحج وبخه ابراهيم بك ومراد بك لأنه تسلم جميع الأموال قائلين له : فضحتنا فى مصر والحجاز وفى الشام والروم وجميع الدنيا) .

فلما أتى أغا السلطان برسالته قال له مراد بك : (ليس لكم عندنا الا حساب . بعدها طلب مهلة شهر رمضان والا (فلا نشهد حجا ولا صرة ولا ندفع شيئا) . وكان الموقف متأزما وخشى المماليك من الباب العالى . فطلب ابراهيم بك شيخ من الأمراء كتابة العرضحالات يعلنون فيها : انهم تابوا واقلعوا ورجعوا عن المخالفة والظلم والطريق التى ارتكبوها . وسلمت للأغا لحملها للباب العالى . وكانت هذه مناورة مفضوحة لتضييع الوقت .

فجاء الأسطول العثمانى لدمياط والاسكندرية بقيادة حسن باشا قبطان . وتوجس أمراء المماليك خيفة فاجتمعوا بالوالى بالقلعة ومعهم شيوخ الأزهر . وقدم أمراء المماليك له عرضحالات أعلنوا فيها توبتهم . وقبل مراد بك ركبة الباشا قائلا : ياسلطانهم .

نحن فى عرضك لتسكين هذا الأمر ودفعه عنا . ونقوم بما علينا ونرتب الأمور وننظم الأحوال على القوانين القديمة . قال له الوالى : من يضمنكم ويتكفل بكم ؟

قال مراد بك : أنا الضامن .

الا أن المماليك هم المماليك فبعد اعلانهم توبتهم بيومين عاثوا بالقاهرة نهبا وسلبا . ونهبوا القرى والفلاحين . وهذا ما جعل حسن باشا قبطان يرسل منشوراته لمشايخ البلاد والعربان بأنه سيطبق قانون نامة الذى وضعه السلطان سليمان لمصر من قبل . وفرح الناس وهم لا يعرفون شيئا عن هذا القانون المهم رفع الظلم والمظالم والمغارم عنهم . وهذا يذكرنا بمنشورات نابليون عام ١٧٩٨ .

وأعلن المماليك بزعامة مراد بك التمرد والعصيان وأعلنوا الحرب ضد جيش السلطان وأخذوا أموالهم ورخص القمح بأسواق القاهرة بعد غلائه الفاحش ، لأن المماليك تخلصوا من المخزون فى مخازنهم بسرعة . لكن مراد هزم عند فوة وعاد خائبا مهزوما الى القاهرة . ودخلها حسن باشا قبطان بعدما فر منها مراد ومماليكه . وأصدر تنظيمات شكلية خاصة بالملابس والتفتيش وحصر أملاك المماليك . وكان العساكر قد كثر تعديهم على الحرفيين فيقول الجبرتى : كثر تعدى العساكر على أهل الحرف كالقهوجية والحمامية والمزينين والخياطين وغيرهم . ويقلع العسكرى سلاحه ويعلقه . وكأنه صيره شريكه وفى

حمايته · ويذهب حيث شاء أو يجلس متى شـاء · ثم يحاسبه ويقاسمه فى المكسب وهذه عادتهم اذا ملكوا بلدة ذهب كل ذى حرفة الى حرفته التى كان يحترفها فى بلده ويشارك البلدى فيها) . فالعساكر العثمانية شاركوا أصحاب كل حرفة فى حرفته فكان مجىء هذه التجريدة وبالا على القاهرة لأن عساكرها كانوا نهابة يعطلون الطرق على المارة وينهبون الحوانيت والأسواق وظلت البلاد حتى بعد عودة حسن باشا قبطان للآستانة فى هذه الفوضى والعبث والظلم لأن المماليك عادوا للقاهرة بعدها اشد قسوة وظلما حتى جاء نابليون عام ١٧٩٨ م وهذه قصة اخرى .

(١٧)

الــى أيــن ؟

مع مجيىء نابليون والحملة الفرنســية لمصــر أصــبحت القاهرة عاصــمة فرنسية ولم يعد للولاة العثمانيين وأمراء المماليك وجود . وأصــبح نابليون يحكم من قصــر الأزبكية بعدما أصبحت القلعة ترســانة حربية لمدافع الفرنســيين المصــوبة نحو المدينة القائمة تحتها . وأحس المصـــريون بأن هناك فرقا بين نهب العســاكر الأتراك والمماليك للأســواق وبين الفرنســيين الذين يدفعون ثمن ما يشــرونه . وأصبحت البلاد تحكم بقوانين . الا أن القــاهرة كان بها طابور خامس من فلول المماليك والعثمانيين الذين كانوا يحــركون الفتن ويؤلبون الرأى العام خفية ضــد الفرنسيين .

وكانت القاهرة فى نظر الفرنســيين مدينة من مدن العصور الوســطى التى ظلت محافظة على هيئتها وتخلفها واســـلوب الحياة بها وشــعر اهلها أنهم أمام بشــر لهم نظامهم واســلوب حياتهم . وهم غــير المماليك والأتراك والانكشـــارية الهمج . فحياتهم ومعاملاتهم بنظام وقواعد وأصــول .

وحاول نابليون تحديث القاهرة وانتشـــالها من جب الاهمال والتخلف الحضــــارى . لكن الحق يقال أن شـــعبها له ســـماته الخاصـــة فنرى الرحالة الفرنسى دى مونكوتى عندما زار مصـــر عـــام ١٦٤٦ كان يجيد العـــربية . فوصـــف المصريين بأنهـــم لا يحملون ضـــغينة لأحد وليس لديهم رغبة فى الانتقام وتنتهى الخلافات بينهم بانتهاء اليوم ويحرصـــون على تنفيـذ العـدالة وأحكام القضـــاء . فالمصـــريون كما قال نابليون أمة وديعة تحافظ على كبريائها .

وكان الاجراءات التخطيطية لشـــــوارع وحارات القاهرة الهدف منه أيام الفرنسيين الحد من انتشـــار الأوبئة والأمراض المعدية . فاتخذت عدة اجراءات من بينها كنس ورش الشـــوارع ونقل الزبالة بها وهدم بعض الحارات وازالة البوابات بها وأجبرت البيوت لتعريض المفروشـــات والأثاثات فى الشمس مع تبخيرها فى أعقاب أى مريض بالطاعون أو أى مرض معد وخصص أطباء الحملة الفرنســـية بالكشـــف على المرضى الذين يوجب الابلاغ عنهم للســـلطات وهذه الاجراءات كانت تضايق المصريين .

والقاهرة ابان الحملة الفرنســـية قد وصــــــفها الرحالة (وليام ويتمان) وصفا دقيقا فكانت البيوت مبنية فى الدور الأرضى بالحجر وفوق طابق من الخشـــب وأرضـــية البيت بها بلاط ووجد فى ســـوق العبيد الزنوج فى بناية عبارة عن فناء حوله مبان من دورين به حجرات . وفى ســـوق الرقيق الأبيض كانت بنايتهم افضـــل وانظف . وكان السوقان شبه خاويين .

وكان ثمة شـــارع طويل يبدأ من باب النصـــر وعلى جانبيه الحوانيت وبه مقـــاه ويصـــل الى قلب القاهرة . وكل مقهى كان بها شـــاعر الربابة يروى الســـير الشـــعبية . وكـــان الناس يسيرون فى الشـــوارع ووجوههم شـــاحبة من ســـوء التغذية .

وكان الباعة الجائلون ينادون على بضاعتهم باسلوب فكاهى مرح .

وابان حكم محمد على اهتم المسئولون عن القاهرة بالأسواق وكان المحتسب يراقبها وأمر الكخيا (محافظ القاهرة) بكنس الشوارع والتخلص من الزبالة وردم البرك والمستنقعات ولاسيما فى غرب المدينة . كما ردمت القناة التى كانت توصل الماء لبركة الازبكية أثناء الفيضان وركز كخيا القاهرة على توسيع الشوارع وازالة المصاطب أمام البيوت والاشغالات من أمام الحوانيت وبالأسواق . وأوصلت القلعة بالازبكية بشارع وسعه الخديوى اسماعيل فيما بعد وأطلق عليه شارع محمد على وجعله يأخذ طابعا فرنسيا بالبوائك .

وقام محمد على باقامة قصره الشهير بشبرا مع اقامة عدة قصور على النيل بين بولاق والقصر العينى حيث بنى هناك مستشفاه كما أقام له قصرا بالأزبكية وجدد القلعة وبنى بها جامعه وقصره بعد ما هدم منشآت المماليك بها وأقام ثكنات لجنوده ومصنع البارود ودار الضربخانة . واهتم بميناء بولاق وجعل ميناء الفسطاط مخازن للبضائع ورغم هذا كله الا أن القاهرة لم تتسع فى عهده .

والقاهرة الحديثة يرجع للخديوى اسماعيل الفضل فى انشائها وكان يطلق عليها باريس الشرق . لأنه استدعى (هوسمان) خبير التخطيط الفرنسى الذى خطط باريس الجديدة بفرنسا . وطلب منه الخديوى نقل الحى الجديد بباريس وتخطيطها الذى وضعه فوق غرب القاهرة على النيل وقام الخديوى اسماعيل بربط القاهرة بالاسكندرية وبالسويس بالسكك الحديدية عام ١٨٥٤ وأقام شركتا المياه والغاز لمد شبكات المياه النقية والغاز للبيوت وانارة الشوارع بغاز الاستصباح .

وكانت التغييرات الطوبغرافية التى قام بها الخديوى اسماعيل بمعاونة الخبير (هوسمان) تغيرات جوهرية فى شكل العاصمة ولاسيما المناطق التى كانت على النيل . لأن التغييرات فى قلب العاصمة القديمة كانت هامشية الى حد ما حيث شق طريق السكة الجديدة كامتداد لشارع الموسكى شرق شارع الخليج المصرى (بورسعيد حاليا) وهذا الشارع ربط العتبة بميدان الحسين . كما أنشىء شارع كلوت بك وجعل البيوت على جانبيه ببوائك اسوة بالطراز الفرنسى . وأقيم ميدان جامع ابن طولون وأزيلت العشش والأكواخ والمبانى حول مسجدى الرفاعى والسلطان حسن فظهر روعة جمالهما ولاسيما وان شارع محمد على كان يبدأ بهما وقام اسماعيل بتوسعة الشارع وأقام على جانبيه بيوتا ببوائك على الطراز الفرنسى بباريس .

الا أن اعادة تخطيط القاهرة أيام محمد على أو الخديوى اسماعيل قد أزال الكثير من الآثار الاسلامية ولاسيما المملوكية . وهذا ما حدث بعد ردم الخليج المصرى وانشاء شارعه وانشاء السكة الجديدة وانشاء شارع الأزهر ليكون امتدادا من العتبة للجامع . كما أن انشاء شارع (الجيش) لربط العباسية بالعتبة قد هدم بيوتا وآثارا مملوكية وقصورا كانت تعتبر تحفا معمارية . وكان الأجانب يشترون المشربيات كاملة . واقتلعت فى هذه التوسعات أشجار وحدائق . أما قاهرة اليوم فلقد أصبحت نسيجا متشابكا من الشوارع والضواحى والامتداد العمرانى وخرجت من الشريط الضيق من الجبل الى النهر فى شكل عمرانى منسق أو شكل عشوائى يخنق هذه المدينة التى أصبحت تعانى النشاز العمرانى الذى قضى على الأخضر واليابس حتى ضاقت القاهرة بمن فيها وضاق من فيها بها .. لكن ستظل هذه المدينة الخالدة بسحر الشرق درة فى جبين الزمن .

الملاحـــق

(عن تخطيط المدن والعمارة
والزخارف والفنون والتصاوير الاسلامية)

التخطيط العمرانى .. والعمارة الاسلامية(١)

تعتبر يثرب أول مدينة اسلامية وضع الرسول (صلى الله عليه وسلم) اسس تخطيطها . لهذا أطلق عليها المسلمون مدينة النبى أو المدينة المنورة . وهذه التسمية اشارة الى النظرة الحضرية التى دعا اليها الاسلام عندما جعل الرسول المدينة أول عاصمة له .

وعندما خطط الرسول مدينته جعلها أساسا للتخطيط العمرانى للمدن الاسلامية والمجتمعات العمرانية الاسلامية الجديدة فى الأمصار والمدن التى بنيت ابان الفتوحات الاسلامية الكبرى ، لأنه جعل المدينة المنورة تقوم على التآخى بين المهاجرين والأنصار ، ولم يجعل القبلية مظهراً محدداً داخل المجتمع الاسلامى الجديد . فكان يطلق على الجماعات بها أسماء غير قبلية كأهل قباء ، وأهل الطائف ، وأهل مكة ، وأهل المدينة .

وفى الأرض الموات التى اختيرت لبناء مسجده الذى بركت فيه ناقته المأمورة جعلها لسكنى المهاجرين ، وجعل الشوارع الرئيسية بها من حول مسجده تمتد منه الى أطراف المدينة الجديدة لتتفرع منها الشوارع الفرعية والجانبية بداخل الخطط ، وكان

---

(١) مقال للكاتب بمجلة (منبر الاسلام) .

عرض الطريق الرئيسى عشـــرة أذرع ، والفرعى خمسة أذرع ، ولدواعى الأمن ولاسيما عندما حوصـــرت المدينة فى غزوة الأحزاب حفر خندقا فى المناطق المكشـــوفة والتى لا تحدها الجبال حتى لا يجتازها العدو ويداهم المســـلمين المتخندقين بالمدينة . وجعل الرســـول معســـكرات الجند خارجها ، وحدد – أيضا – مكانا للذبح والســـلخ بعيدا عن البيوت ، وجعل بكل الخطط دور الخلاء للحفاظ على نظافة المدينة ، وشـــيد بالمسجد خيمة جعلها مستشفى لأن المســـجد مكان معروف يســـهل للجرحى والمصابين والمرضى الوصـــول اليه .

وبنظرة شـــاملة على المدينة فى عهد المصطفى (صـــلى الله عليه وسلم) ، نجد أن لها مصـــدرا للمياه وهو بئر رومة الذى اشـــتراه عثمان بن عفان من يهودى وتبرع به للمســـلمين عملا بما دعا اليه النبى (صلى الله عليه وسلم) . ليأخذوا منه حاجتهم من الماء بدون مقابل ، وكان هذا أول وقف فى الاســـلام ثم جعل الأســـواق خارج البيوت وعلى أطرافها حتى تظل مدينته مركزا ســـياسيا ودينيا واداريا . واختياره لمســـجده فى الأرض الموات التى بركت فيه ناقته عندما قال بأنها مأمورة وأراد (صلى الله عليه وسلم) أن يحييها ، لهذا أقطع المهاجرين حول مسجده ، فقسمها الى خطط وقطائع ليعمروها ، وجمع فى كل قطعة ذوى القربى ليقســـموها فيما بينهم . وهذا التخطيط العمرانى لم يكن معروفا فى الجاهلية عند العرب .

ولما حدد الرسول ســـوق المدينة قال **هذا ســـوقكم فلا يضيق ولا يؤخذ فيه خراج** ، وكان يمر به لمراقبة ســـير العمل فيه ، والوقوف على التزام المعاملات الاســـلامية فى البيع والشراء وعين ســـعد بن أبى وقاص عاملا عليه ، وجعل الســـوق مفتوحا من كل الجهات .

المدن الجديدة فى الاسلام

كان المسلمون فى عصر الرسول وصدر الاسلام منشغلين بالفتوحات ونشر الاسلام شرقا وغربا ، ولم يعيروا العمران اهتماما ، لهذا كانت الدور فى المدن الجديدة صغيرة ، وتفى بالغرض للسكنى ، حتى نرى الخليفة عمر بن الخطاب لما بلغه ان خارجة بن حذافة بنى له غرفة علوية بداره في مدينة الفسطاط أرسل الى واليه عمرو بن العاص رسالة قال فيها :

« بلغنى ان خارجة بن حذافة شيد غرفة ولقد اراد خارجة أن يطلع على عورات جيرانه ، فاذا أتاك كتابى هذا فاهدمها ، ان شاء الله والسلام » .

لهذا كانت المساجد والدور التى انشئت فى صدر الاسلام بالمدن الجديدة لأنها فى الأصل كانت معسكرات لجند المسلمين (سواء فى البصرة أو الكوفة أو الفسطاط) ـ لا تبنى الا من دور واحد ولا يعلو بها بناء حتى لا يكشف من أمر الآخرين وعوارتهم . وأصبح هذا مبدأ ثابتا فى الفقه الاسلامى ، وهو مهما تطاول البنيان وارتفع يجب الا يكشف الجار ولا يجور عليه بكشف عورات الآخرين ، وهذا حق من حقوق الجيرة متفق عليه بين جمهور الفقهاء وحق للجار على جاره .

ومن الآداب الاسلامية عندما ارتفعت المآذن واصبحت تطل على الجيران كان يختار لها المؤذنون من العميان ضمانا لدرء أى شبهة من نظرة واحدة لداخل البيوت التى تقع فى مدى الرؤية أو بالنظر من المئذنة .

ومن ثم نجد أن المدن الاسلامية قامت على نمط مدينة الرسول ، ومنها : مدن البصـــرة والكوفه والفســـطاط والعســـكر والقطائع والقيروان وبغداد والقاهره .. وكلها أقيمت وشـــيدت فى ظلال الاســـلام ، فقســـمت أرضـــيها الى خطط ، وهذه الخطط قسمت الى قطائع . وكان بكل خطة مســـجد ومقبرة ماعدا مدينة الرسول فقد جعل البقيع مدفنا جماعيا لكل المســـلمين وقســـمه ليكون لكل قبيلة به جزء تدفن فيه موتاها .

ولقد اهتم الاســـــلام بالتمدن وازدهار المدن كما يقـــول (لومبارد) ، وهذا ـــ أيضا ـــ ما أكده (بنيت) بقوله بأن الاسلام دين تمدن ، لهذا كان المســـلمون يتمســـكون بأحكام دينهم عند انشـــائهم للمدن الاسلامية .

المفهـــوم الاســـلامى المدينـــة

صـــنف أصـــحاب المســـالك والجغرافيون العـــرب المدن تصنيفا اصطلحوا عليه وجعلوا المدن مدنا كبيرة أو وســـــطا أو صـــغيرة .. فاذا كانت المدينة عامرة أطلقوا عليها قصـــبة وكانت القصـــبة تطلق ـــ أيضا ـــ على عاصـــمة الولاية أو الاقليم ، وفى كتابات البعض منهم كانوا يطلقون على المدن كلمة بلد أو بلدة عظيمة أو بليدة أو بلد صغير حسب حجم المدينة .

وكلمة مدينة أصـــلها كلمة آرامية معناها (دين) لأن الديان هو القاضى وكلمة مدينتا بالآرامية معناها القضـــاء فلذلك يقال على المدن بالشـــام قضـــاء مثل قضـــاء حلب أو دمشق .

وحدد الفقهاء المســـلمون شـــكل المدينة ومواصفاتها فبينوا انها المصـــر التى عليها ملوك أو حكام ، لهذا قصـــر أبو حنيفة

صلاة الجمعة على الأمصار (المدن) ولم يجز اقامتها فى القرى .

***

ووضع الفقه الاسلامى أحكام البناء والعمران بالتفصيل الواضح والذى لا لبس فيه . وكان القضاة يطبقون هذه الأحكام التى كان الحكام ونوابهم يلتزمون بتنفيذها ، وهذه الأحكام وضعت ملامح المدينة الاسلامية عند تخطيطها أو بناء مساجدها وعمائرها .

***

أما الجغرافيون العرب فاعتبروا المدينة يتميزها بسورها الذى يحصنها وبها المساجد والأسواق والحانات والحمامات ومراكض الخيل ومعامل الابل ومرابض الغنم واقامة الصناعات والمهن ، ويكون لها مصادر مياه ثابتة ، وكلها أشياء وضعت لتكون أسسا لاقامة المدينة الاسلامية .

واهتم الجغرافيون والمؤرخون المسلمون بتاريخ البلدان وخطط المدن وآثارها ، وكانت كتاباتهم حول هذه الموضوعات ثبتا تراثيا ألقى الضوء على وصف الكثير من العمائر والقصور والتى اندثرت مع الزمن ، الا أن هذه الكتابات أمدتنا بالتفصيلات والمعلومات عن الطرز المعمارية التى سادت فى ديار الاسلام والامتداد العمرانى للمدن الاسلامية .

وفى الأدب العربى ظهر أدب الفضائل وهو لون من الوان الأدب الوصفى الذى كان يصف محاسن القبائل وضروبها ، ولما سكن العرب المدن بعد الاسلام أصبح أدب الفضائل يضم محاسن المدن وطبائع سكانها ، وكثير من كتب الفضائل تناولت فضائل مكة والمدينة والقدس وغيرها من المدن الاسلامية التاريخية ، وفى اللغة العربية نجد أن كلمة العرصة هى البقعة

الفضـــاء ، والخرق وهو البلد الواسع التى تنضغط نيه الريح ، والفسطاط معناها المدينة الجامعة .

وكان المسلمون ينشئون المدن على طرق القوافل الرئيسية ، فالموصـــل كانت تقع على مفترق الطرق وتصـــلها ببعض ، وكانت تعتبر بوابة المشـــرق الاســـلامى . والبصـــرة أقيمت لغرض عســـكرى حيث كانت قاعدة لجند المســـلمين ينطلقون منها لفارس للقيام بالفتوحات الاســـلامية ، وكانت مدينة الفســـطاط بمصـــر معسكرا لجند المسلمين ينطلقون منها لفتوحات شمالى أفريقيا .

والقرآن أشـــار الى المدينة والقرية . فالمدينة هى البلد الذى كان عليه حكام وملوك كما يقول الفقهاء . وقصـــر بعضـــهم اقامة صـــلاة الجمعة على الأمصـــار (المدن) ولم يجيزوا اقامتها فى القرى لأن المصـــر هو المكان الذى يوجد به الســـلطان أو نائبه ليقيم الحدود ، وبه القاضى الذى ينفذ الأحكام ، لهذا أطلق على الولاة أمراء الصلاة .

ووضـــع عمر بن الخطاب شـــروطا لبناء المدن اهمها الا يكون بينها وبين المدينة المنورة موانع مائية ليســـهل الاتصـــال بها برا ونجدتها اذا لزم الأمر .

وأطلق الفقهاء على الشـــوارع الرئيســـية بالمدن طرق الســـابلة أو الطرق النافذة . ومنعوا تضـــييقها بالبناء أو التعدى عليها بالاشـــغالات حتى لا يعوق هذا المرور ، ووضـــعوا أساسا لبناء الصـــناعات المقلقة للراحة او الســـكنى فمنعوا اقامة المصانع التى تصـــدر أصـــواتا مزعجة أو تطلق روائح كريهة كمصانع الجير أو الفخار ، فاشـــترطوا انشـــاءها خـــارج المدن وعند أطرافها ، ولو امتد العمران تظل قائمة لأن المضرور دخل عليهـــا وكان يمكنه تجنبها ، لهذا أبطلوا حق ازالتها .

ملامح العمارة الاسلامية

كانت بداية ظهور الفنون المعمارية الاسلامية فى العصرين الأموى والعباسى . وكانت دمشق العاصمة الأموية ، وبغداد العاصمة العباسية . وكانت دمشق قبل الفتح الاسلامى حاضرة الشام أيام البيزنطيين ، وكانت بها العمائر والأسواق ، وكانت عمائر الشام عالية ، وهذا ما جعل أمراء بنى أمية يشيدون المساجد بارتفاعات عالية ، فشيدوا الجامع الأموى بدمشق ، وجامع حلب ، وقبة الصخرة ببيت المقدس كمبان عالية ، علاوة على قصورهم ببادية الشام ، وكلها تعتبر حاليا من روائع العمارة الاسلامية .

والعمارة الاسلامية تقسم حاليا حسب العصور التاريخية التى شيدت فيها ، فيقال العمارة الأموية أو العباسية أو الفاطمية أو السلجوقية أو العثمانية او الاندلسية أو المملوكية أو المغولية .

فكان الأمويون مولعين بالحفر فى الحجارة التى كانت توضع على واجهات القصور والمبانى ، وكان الحفر يأخذ اشكالا هندسية وزخرفية لزهرة اللوتس ، أو كيزان العنب ، أو التوريق مع زخرفة الواجهات بالفسيفساء الملونة أو الزجاجية فى شكل مكعبات ملونة ، وتطعم بالصدف لتعطى بريقا وضوءا . لهذا بطنت قبة الصخرة بالفسيفساء الملونة وعليها رسومات واوراق اشجار وفروع نباتات واشكال الفواكه وكيزان الصنوبر وعناقيد العنب مع رسوم الأهلة والنجوم .

وفى العصر العباسى كانت المبانى تبنى بالطوب اللبن ، وادخل الرشيد لأول مرة الآجر فى بناء سور مدينة بغداد ،

ولما بنيت مدينة سـامراء كان بناؤها بالآجر وبنى به جامعها الشهير بمئذنته الملوية والتى سـلمها خارجها كعادة أهل بابل عند بنائهم أبراجهم ، وتعتبر هذه المئذنة وشقيقتها مئذنة جامع ابن طولون بالقاهرة نموذجين فريدين فى العمارة الاسلامية .

والفاطميون أول من أدخلوا بناء المقرنصـات على حواف المبانى ، ونراها فى جامعى الأزهر والجيوشى بالقاهرة . وهم أول من أدخلوا بناء القباب فوق الأضـرحة والجوامع فى مصـر ، لهذا نرى جامع الحاكم بأمر الله له قبة كبيرة .

والعثمانيون أدخلوا الطراز المسـلجوقى التركى فى بناء المساجد فى البلقان والأناضـول ، وتتميز الجوامع العثمانية بالقبة الكبيرة التى تحيط بها قباب صـغيرة ماعدا ناحية القبلة ، وهذا ما جعل محمد على يبنى جامعه بالقلعة على الطـراز العثمـانى المميز .

وفى الهند نرى عمائر المغول المسـلمين ومن بينها جامع (شاه جيهان) بتاتا بالهند ، وقد بنى عام ١٠٥٧ هـ ، وهو صورة طبق الأصـل من المسـجد الأقصى ، وصمم بحيث يتردد فيه صـدى صـوت الخطيب بصـوت عال أثناء القائه خطبة الجمعة ليسـهل سـماعه . وضـريح وجامع تاج محل يعتبر من روائع العمارة الاسـلامية بزخارفه القرآنية ومآذنه وواجهته الملونة وزخارف الآيات القرآنية وأسـماء الله الحسنى على ضريح تاج محل .

وفى آسـيا الوسـطى أطلق علماء العمارة على عماراتها الاسـلامية الأرابيسـك لأنها تتسـم بالزخرفة على واجهـات الجدران مع التحلى بالخطوط العربية ولاسـيما الخط الكوفى ،

ويصـــاحب العمارة هناك القباب المزخرفة والمضـــلعة والمآذن السـامقة علوا ورشـاقة كالنخيل عندما تشـق عنان السماء . وهذه الحضـارة تجسـد عظمة الاسـلام هناك .

والعمارة الاســلامية من الموضـوعات التى اســتهوت الكثيرين ممن يعنون بدراســة فنون العمارة ، لهذا أصــدروا كتبا ومجلدات اظهروا فيها النواحى الجمـالية والأسس المعمارية والقواعد الهندسـية التى أقيمت على اسسها الطرز الاســلامية بشــكل موســع لأن العمارة الاســلامية لها فلسفة جمالية تحقق من خلالها الوحدة الفنية التى ترتبط بتعاليم الاســلام ، وهذا ما نراه جليا فى شــتى صـورها المتعددة واشـكالها المميـزة ، واعتبر المعماريون العالميون أن الفن المعمارى الاسلامى من اطول الفنون المعمارية عمرا لأنها لاتزال ســائدة حتى اليوم لأكثر من أربعة عشر قرنا .

ولأن المدارس والدكاكين والفنــادق والحمـامات والنزل والبيمارستانات والخانات على الطرق والتكايا والأســبلة فى الشــوارع كانت واجهاتها ضـخمة وزخارفها فخمة ، ومما ساعد على هذا تطور الزخارف الجصـية ، واستعمال أسـاليب غير عادية فى الزخرفة حتى أصبحت هـذه العمارة شائعة فى الثلاث قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا .

وتمتاز الزخارف والأشـكال الزخرفية بالمســاجد بابراز بعض أجزاء المبنى لكنها لا تؤدى أو تحقق غرضا دينيا كالرسومات فى الكنائس أو المعابد ، لأن الاســلام نقى خالص من الاشــارة اليه ، بالصـور والرسـوم ، ولذلك لا تتعدى هذه الزخـارف الكتابات القرآنية واسـماء الله الحسنى وزخرفة نباتية وتسجيل اسـم منشىء المسـجد أو بانيه وتاريخ البناء .

والعمارة الاسـلامية من الأندلس غربا حتى أندونيسيا شرقا لغتها التعبيرية واحدة والتى تتفق مع روح الاسلام . وهذا ما يطلق عليه الذوق الجمالى ، الذى يتضح لنا فى أشكال القباب والسقوف والمآذن وابواب المساجد والأعمدة الداخلية بالأروقة وتيجانها وعقودها ومقرنصاتها . والزخارف الهندسية الاسلامية تتسم بالتناظر مع تجنب تصوير الانسان أو الحيوان ، لهذا يسهل للناظر التعرف على الحضارة الاسلامية وتمييزها بسهولة ، ولاسيما فى الدول التى فتحها الاسلام وكانت العمائر تسودها . فاختيرت النماذج الاسلامية فى العمارة والزخرفة لتميز العمائر الاسلامية عن غيرها من العمائر سواء فى مصر والشام وتركيا والأندلس وفارس والهند .

لهذا ظهرت الطرز المعمارية الاسلامية التى يسهل تمييز عمائرها من بين العمائر التراثية بهذه البلدان والتى أقيمت بها قبل الفتح الاسلامى ، فالملامح الاسلامية تراها خير شاهد على عظمة الحضارة الاسلامية ، وبصماتها دامغة لا لبس فيها ولا غموض ، وهذا ثبت حضارى لا يمارى فيه ..

تخطيط المدينــة الاسلاميــة(١)

فى هذا المقال القى الضــوء على المدن الاســلامية التى نشأت وازدهرت فى ظلال الاســلام . لأن المســلمين كانوا يسترشدون بقواعد دينهم عند انشــائهم للمدن وحــدد الفقهاء مواصــفات اختيار وشــكل المدينة الاســلامية ووضــعوا مواصــــفات خاصــة بالبناء والعمران بالمدن . وكان القضــاة يراعونها فى أحكامهم ، وكان الحكام ونوابهم ملتزمين بتنفيذ هذه الأحكام والقواعد التى راعت الحفاظ على ملامح وشــكل المدينة الاســلامية وهذا ما سأتناوله بالتفصــيل فيما بعد .

والقرآن قد أشــار الى المدينة والقرية . فالمدينة هى البلد الذى عليه حكام ينفذون الأحكام وقصــر بعض الفقهاء اقامة صلاة الجمعة على الأمصــار (المدن) ، ولم يجيزوا اقامتها فى القرى ، لأن المصــر هو البلد الذى يوجد فيه أمير أو وال مقيم للحدود ، وبه القاضى الذى يصــدر الأحكام ويتابع تنفيذها . لهذا كان يطلق على الولاة فى الأمصار ائمة الصلاة .

ملامح اختيــار المدن

المدينة هى المصــر وجمعها الأمصــار . والمدينة الاسلامية تتميز بســورها الذى يحصــنها وهذا لتحقيق الأمن والأمان

---

(١) مقال للكاتب بمجلة (منبر الاسلام) .

لساكنها . ويوجد بالمدينة السلطة الادارية والقضائية والأسواق والمرافق العامة كمصادر المياه ، والمؤن ، والحمامات ، والطرق ، والمساجد الجامعة .

وبين الفقهاء أن العمران وتكثير العمارة من أركان الملك ، ووضعوا شروطا فقهية لاختيار موقع المدينة ، من بينها وجود مصادر المياه ، وسعة المكان ، ووجود الميرة ، والقرب من المراعى ، واعتدال جو المكان المختار ، وتحصين المنازل .

وبين الشارع وجوب التزام الحاكم بتوفير المياه لها ، وتقدير طرقها ولاسيما الطرق النافذة (الرئيسية) ومنع تضييقها بالتعدى عليها بالبناء أو الاشغالات ، حتى لا يعاق المرور بها . كما أنه على الحاكم بناء المسجد الجامع فى وسطها وملتقى طرقها ، وتقدير أسواقها ، وأن ينقل اليها العلماء والصناع ، كما يميز فى سكناها فلا يجمع القبائل الأضداد معا .

ووضع الخليفة عمر بن الحطاب شروطا عامة لبناء المدن الاسلامية فى عهده أهمها ألا يكون بينها وبين المدينة المنورة عاصمة الخلافة أى موانع مائية ليسهل نجدتها ، أو الاتصال بها عند الشدة أو الحصار .

وكانت المدن الاسلامية تفى بهذه الأغراض ولاسيما فى البصرة والكوفة والفسطاط والقيروان والقطائع وواسط . وكان ينشأ بالمدن القصبات والقلاع ليعيش فيها الوالى لتأمينة .

وكانت المدينة تقسم الى قطائع واحياء سكنية وكانت المساجد تتوزع على خططها . وكانت كل قبيلة فى جنود الفتح تقسم خططها فيما بينها ، ولها بها مقبرتها ومسجدها . وكانت الأسواق تقام أسبوعيا خارج المدن للتخفيف من الزحام بها .

شـــروط فقهية لانشـــاء المدن

تناول الفقهاء فى كتب الحســـبة احكام البناء والعمارة فى المدن ، فأوجبوا بناء المســـاجد والأربطة والحصـــون للدفاع عن حرمات المســـلمين ، وأوجبوا بناء الأســـوار حـــولها ، واقامة الجســـور والقناطر والســـدود . وهذه المنشـــآت يجب على جماعة المســـلمين الاســـهام فيها لأنها منافع عامة لهم . وقسم الفقهاء البناء فى المدن ثلاثة أقسام هى :

البناء المندوب كبناء المآذن والمساجد والأسواق والحمامات ، والبناء المباح كبناء المســـاكن والحوانيت ، والبناء المحظور كبناء القبور أو الكنائس . وبينت كتب الحســـبة كيفية التوســـع فى البلدان أو التطاول فى البنيان وزخرفته . كما نصـــت على كيفية بناء بيوت الخلاء (دورات المياه) والمســـاجد فى المدن والقرى وكيفية البناء فوقها أو الحاق الأسبلة والمكاتب والأضـــرحة بها .

ووضعت كتب الحســـبة مواصـــفات مواد البناء ، وأطلقوا عليها طهارة مواد البناء وبينت كمية الماء التى تخلط بها ، ووضعوا عقود شـــروط للبناء يتعاقد بها صـــاحب البناء مع البنائين وهذه العقود تضـــمنت ذكر الجنس والجـــودة والقدرة على البناء والمواصـــفات المطلوبة فى هذا البناء والمقاييس فى الطول والعرض والارتفاع ونص الشـــارع بأن يأمر الوالى أو نائبه البنائين بالاتقان فى صـــنعتهم مع دراســـة الجدوى والنص فيها بالعقـــد حتى لا يلحق بصـــاحب البناء ضـــرر عظيم أو يتعثر فى البناء أو يســـتدين .

واذا غش البناء ألزمه المشرع باعادة البناء ، واذا غش فيه أو خالف المواصفات فعليه أن يصلح ما أفسده . وهذه المواصفات وضعها المشرع ليكفل متانة البناء .

وبين الفقهاء أن البناء لا يتطاول على الجيران مع عدم فتح نوافذ تطل على الآخرين . ومنع الجار من وضع عروق للبناء فى جدار جاره وعدم اخراج الميازيب (المزاريب) والمشربيات فوق الطرق . وحدد الفقهاء حقوق صاحب السفل أو صاحب العلو فى الدار كما حددوا العلاقة بين المالك والمستأجر وبينوا الشفعة فى البناء عند بيعه أو قسمته .

وأطلق الفقهاء أيدى الحكام فى منع البناء فى أماكن معينة أو اباحته ، كما منحوهم الحق فى منع التطاول فى البناء أو تقصيره حسب مصلحة الأمة .

المدن الاسلامية بشمالى افريقيا

كانت المدن الاسلامية الأولى عبارة عن معسكرات لجنود الفتح الاسلامى ، فكانت الكوفة والبصرة مدينتين تنطلق منهما جنود الفتح الاسلامى فى بلاد الفرس . والفسطاط بمصر كانت مدينة جند المسلمين ينطلقون منها لفتح برقة وشمالى أفريقيا ، لهذا كان العالم الاسلامى مقسما تقسيما سياسيا عرف بالأقاليم ، وهى العراق وحاضرته بغداد ، وشرقه كان المشرق الاسلامى يضم فارس وبلاد ما وراء النهر (نهر جيحون) وغرب العراق الشام وفلسطين وبلاد الحجاز .. أما مصر وحتى المحيط الاطلنطى فكانت بلاد المغرب الاسلامى مع جزر البحر الأبيض المتوسط الغربية .

زيادة ابن أبيه عندما خطط ذابصرة جعلها خططا ، وبكل خطة ترك بها أرضا فضاء لمرابط الخيل ومقبرة لكل قبيلة ، وبنى المدينة بالجص والآجر (الفخار) وجعل لها سورا له أربعة ابواب وبنى بها الحمامات فى وسطها .

أما مدينة الفسطاط فقد خططها عام ٢١ هـ ٦٤٢ م عمرو ابن العاص على أساس الخطط ، وهى أول مدينة اسلامية تقام فى شمالى افريقيا . وجارت البيوت للتوسع العمرانى على الفضاء من حولها ، وأصبحت شوارعها ملتوية لهذا السبب ، مما استلزم بناء مدينتى العسكر فى أول عهد العباسيين ليسكنها جنودهم بمصر . والقطائع التى بناها أحمد بن طولون لينعزل بجنوده بها . وضاقت المدن الثلاث : الفسطاط ، والعسكر ، والقطائع بسكانها فبنيت القاهرة كامتداد عمرانى لمصر العتيقة كما يسميها كتاب الخطط .

وكانت مدينة العسكر قد بنيت عام ١٣٣ هـ/٧٥٠ م شمال شرق الفسطاط وأطلق عليها العسكر لأنها كانت معسكرا لجنود العباسيين فى مطلع حكمهم لمصر . ولما تولى أحمد بن طولون بنى شرقها مدينة القطائع عند سفح جبل يشكر ، وكان قد قسمها الى قطائع أسكن كل قطيعة من كانت تربطهم رابطة الجنس كالسودانيين والأحباش ، أو رابطة المهنة كالحدادين والبزازين . وكان أحمد بن طولون قد خطط مدينته القطائع على غرار مدينة سامراء التى أقامها المعتصم العباسى لتكون حاضرته بدلا من بغداد ، وكان قد بناها من الآجر وجعل جامعها له مئذنته الملوية وهو اشبه بجامع ابن طولون الذى يعتبر الأثر الوحيد الباقى من مدينة القطائع الطولونية حتى اليوم بمصر العتيقة . وكانت المدينة قد أحرقها الفاطميون بعد بنائهم مدينتهم القاهرة عام ٩٧٠ م .

أما مدينة القاهرة ، فقد وضـــع جوهر الصـــقلى تخطيطها لتكون ســـكنى الفاطميين ، كانت مدينة ملكية ، بنيت شـــوارعها الرئيســـية من الشـــمال للجنوب لتكون ملقفا للرياح الشـــمالية الباردة لتهويتها ، ولاسيما فى الأيام الحارة ، وتكون هذه الشوارع متعامدة مع حركة الشمس من الشـــرق الى الغرب فتبرد أطول فترة ممكنة فى أيام القيظ لأن الشـــوارع ســـتكون ظليلة معظم أوقات النهار بظلال البيوت والقصـــور على جانبى هذه الشوارع . وكان يوجد بالقاهرة الميادين ، وكان يطلق عليها الرحاب أو الرحبة وكانت هذه الرحاب أكثر اتســـاعا من الشـــوارع والأزقة من حولها لتحقيق انســـياب المرور عبرها . وكانت هذه الميادين ســـاحات خالية تماما من أى اشغالات .

ومن الطريف أن المصـــريين عند بنائهم قصـــرا أو بيتا أو يخططون شـــارعا أو أرضـــا للبناء كانوا يستعينون بالمهندسين ولا سيما أيام حكم المماليك . وكان المهندســـون يقومون بوضـــع التصـــميمات والانشـــاءات حتى نجد الناصـــر محمد بن قلاوون ينشىء ديوان (العمارة) وهو يمثل وزارة الاســـكان والتعمير فى زماننا ليقوم بالاشـــراف على بناء المدارس والدور السـلطانية والخانقات والملاجىء والمســـتشفيات والحصـــون والقلاع وكان المصـــريون يراعون فى بناء دورهم أن تفضى الأبواب الخارجية الى دهاليز أو طرقات ملتوية حتى لا يرى المارة ما بداخلها ، وكانت النوافذ تســـد بالمشـــربيات لتحقق هذا الغرض .

وفى مدينة القـــاهرة أيام المماليك كانت من أهم واجبـــات المحاســـب ومعاونيه مراقبة شـــوارع القاهرة وانارتها ليلا . وكانوا يقومون بازالة اشـــغالات الطرق ، وكانت شـــوارعها مرصـــوفة ، ولها أرصـــفة على الجـــانبين . وكانت شـــوارع

القاهرة ضيقة لمنع الشمس الحارقة وحماية المارة الا أنها كانت تتمتع بانسياب المرور عبرها لمراقبة ومنع الاشتغالات بها .

وفى عام ٥٠ هـ/٦٧٠ م . بنى عقبة بن نافع الفهرى مدينة القيروان فاختار ارضا سبخة ، وبنى فوقها مدينته التى ارادها أن تكون عز للاسلام الى آخر الدهر . وكانت الأرض التى اختارها موئلا للوحوش والسباع والهوام . فاختط أولا ، دار الامارة ، ثم اختط موقع المسجد الجامع وحار فى اختيار القبلة حتى هداه الله اليها ، وكان المسجد صغيرا ومئذنته منخفضة ، واليوم يعتبر اشهر واكبر جامعة فى الشمال الأفريقى كله . والقيروان اتخذها موسى بن نصير مقرا لولايته ، وجعلها قاعدة انطلاق الغزوات ضد البربر وفتوحات الأندلس حتى لقب بأمير القيروان عندما حكمها عام ٨٥ هـ/٧٠٥ م .

مدن المشرق الاسلامى

بنيت مدينة بغداد عام ١٤٥ هـ/٧٦٢ م وكانت دائرية الشكل وجعل لها أربعة مداخل رئيسية ومحورية . ففى شمالى شرقيها كان باب خراسان ، وفى شمالى غربيها كان باب الشام ، وفى جنوبى شرقيها باب البصرة ، وفى جنوبى غربيها باب الكوفة . وبنيت بيوتها من الطين الملاط والبوص ، وكانت تربط به المداميك . أما الآجر (الفخار) فكان يستخدم فى عمل القباب .

وكان حول مدينة بغداد سوران خارجيان ويحيطان بالمدينة ، وبهما الأبواب الأربعة وكان السور الداخلى أعرض من السور الخارجى ، وحولهما خندق . لهذا كان أمام كل باب قنطرة العبور فوقها للدخول او الخروج من المدينة . وكان السور الداخلى دهاليز يعسكر فيها الجند للدفاع عن المدينة .

وكان من عادة شعوب آسيا الوسطى بناء القلاع حول المدن الصغيرة والحصون حول المدن الكبيرة ، وكانت تضرب الأسوار حول هذه المدن ، وكان بمدينة بخارى رباط بسورها عند باب سمرقند ، وكانت مهمة انرباط الدفاع عن المدينة وحراستها . لهذا كان من عادة شعوب آسيا الوسطى ، تخطيط مدنهم على هيئة القلاع والحصون ، وبداخلها الأسواق والمساجد والبيوت والحمامات .

المدن المتاحف

ثلاث مدن رئيسية بآسيا الوسطى تعتبر اليوم متاحف ومحميات معمارية ، ولا يجوز البناء حولها وهى طشقند ؛ وسمرقند، وبخارى . وكانت سمرقند طوال تاريخها الموغل فى القدم مركز الحضارة والتقاليد الثقافية والتاريخية طوال العصور الاسلامية، وتعتبر لهذا أهل سمرقند أن مدينتهم قلب العالم ولاسيما وأنها كانت تقع على طريق قوافل الحرير التى كانت ترد اليها من الصين ليصل الى أوربا . والزائرون اليوم لهذه المدينة التراثية تبهرهم آثارها المعمارية المتميزة وكان المؤرخون العرب يطلقون على هذه المدينة بلاد الصغد .

وكانت مدينة بخارى يطلق عليها قبة الاسلام لكثرة علمائها وأئمتها ، وكانت المدينة قلعة (أرك بخارى) وكان « أفراسياب » قد بناها وبنى بها قصره ، وقد خربها « خوارزم شاه » عام ٥٣٤ هـ/١١٣٩ م . ثم عمرها بعده « بنماين — البكتين » لكن الاتراك الغز داهموها وخربوها ، وعمرت القلعة ليدمرها جنكيز خان عام ١٢١٩ م . ويوجد حاليا ببخارى مدرسة (مير عرب) وجامعها وكانت منذ خمسة قرون مدرسة شهيرة فى المشرق الاسلامى . وكان عربى يمنى يسمى « أمير عرب » قد قام

بتأسيس هذه المدرسة التى اشتهرت بمكتبتها الثرية ، وجذبت اليها التلاميذ من شتى بقاع المشرق الاسلامى .

أما مدينة بلخ التى كان يطلق عليها العرب (أم البلاد) فهى احدى المدن الأثرية والتاريخية بآسيا الوسطى وتقع شمال افغانستان وكان العرب قد فتحوها عام ٦٦٣ م . وكان بها مسجد (نوح جميد) بقبابه التسع وشكله المربع . وهذه القبائب تقوم على تسعة أقواس مدببة تحملها ستة أعمدة رئيسية . ولم يبق من زخارف هذا المسجد سوى الزخارف الداخلية ، وهى تبدو للناظرين فريدة فى اشكالها الهندسية البديعة ، سواء فى فن التوريق الزهرى أو النقوش الجصية التى تكسو سطح الأعمدة ، ولا تتكرر الرسومات الا فى التيجان . وكان هذا المسجد قد بنى فى القرن التاسع ويعتبره علماء الآثار انجازا معماريا لا مثيل له .

وهذه المدن تنادى المسلمين فى كل مكان للحفاظ عليها واعادة النشاط الاسلامى اليها بمناصرة قضايا سكانها المسلمين .

وأخيرا ، تعتبر المدن الاسلامية بامتداد آسيا الوسطى متاحف معمارية فريدة رغم ما أصابها من الاهمال والتخريب أيام الحكم الشيوعى تحت ستار ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى ، لأن الشيوعيين كانوا ينظرون الى هذه المبانى التراثية الاسلامية على أنها متاحف وليست كمؤسسات دينية ، وتتميز العمارة هناك بالزخرفة والعلو وزخرفة الواجهات وتشييد القباب المضلعة والملونة .

هذه ملامح المدن الاسلامية ولاسيما المدن التى تأثرت بالفنون الاسلامية وازدهرت فى ظلال الاسلام .

الفنون والتصاوير الاسلاميــة(١)

تعتبر الطرز الاســـــلامية تعبيرا عن فهم القوانين الكونية التى تســـيطر على كل المخلوقات .. هكذا قال (كيث كريشلو) الأستاذ بكلية الفنون الملكية بلندن عند وصـــفه للفنون والتصاوير الاســـلامية . ويضـــيف (كريشلو) بأن الغرب ينظر الى الفنون الاســـلامية نظرة خاطئة لأنه ينظر اليها من الجانب التزيينى فقط علما بأن تجريدات هذه الفنون من البراعة بحيث تخلب الحس . فتأخذه خارج النطاق العادى لتوصـــل الى حقيقة الوجود الكونى . ويقول الكاتب بأن هذه الفنون الاســـــلامية فى كل أشـــكالها وطرزها تقوم على قواعد تضـــــفى معانى فسلـــــفية وروحية أصـــيلة لأن أعمالا كالفسيفساء والمشـــربيات والسجاد والعمارة الاسلامية تقوم على تشكيلات ورسومات وتصميمات رياضية .

التصـــوير عنـــد العـــرب

التصـــوير كلمة عربية يقصـــد بها تشـــكيل التماثيل ورسوم الصـــور على الورق والجدران والقماش والخشـــــب والزجاج والفسيفساء الزجاجية والفخار والخزف . وكان التصـــوير عند

---

(١) مقال للكاتب فى مجلة (منبر الاسلام) .

العرب يتجه الى الرسـومات النباتية متحاشـيا الرسـومات الحيوانية . لهذا نجده ثريا بالرسـومات والزخارف الهندسـية والزخرفية التى أصبحت سـمة بارزة فى الفن الاسلامى .

ومن أشـهر الآثار الاسـلامية التى يظهر فيها هذا الفن المسجد الأموى بدمشـق ، وقبة الصـخرة وقصـر عمرة والقصر الحيرى الغربى والشـرقى . وهذه كلها تعبر عن الزخـارف الاسـلامية ابان العصـر الأموى . لأن الفنان المسلم اسـتطاع بعبقرية فنية التوليف بين فنون الفرس والروم والصـين والقبط والبربر . وأخرج فنا اسـلاميا متجانسـا .. له أسسه ومعاييره وسـماته الفنية . لأنه استبعد من هذه الفنون الوافدة ما يتنافى مع الدين أو ما لايتفق مع مزاج الفنان الدينى أو حسه الشعورى والايمائى .

ولما سـادت روح الاسـلام فى المشـرق والمغـرب كان الصـانع ملتزما التزاما يجعله يقدم أحسـن ما عنده ويتقن ما يصـنعه أو يرسـمه أو ينسـجه ويزينه . وكان لكراهية المسلمين للتصـوير وصـناعة التماثيل أن ازدهر الشـعر العربى بوصفه وتصـويره للمناظر العربية تصـويرا بديعا . كما أبدع الفنانون المسـلمون فى رسـوماتهم الزخرفية والنباتية والزهرية وامتد هذا التأثير الى الخط العربى الذى أصـبح لوحات زخرفية وتصويرية بديعة .. مما أظهر الخطوط العربية بشـكلها الجمالى الأخاذ للناظرين .. حتى أصـبحت لوحات الخط العربى لوحات فنية عالمية .. لأن هذا الفن قاصـر على اللغة العربية مما جعل الغرب وحاكيه فى رسـوماته لابداعاته الفنية الرائعة . فكان الفنانون الغربيون يقلدونه ويرسـمونه بآياته القرآنية لأنهم تأثروا بابداعات الزخارف والخطوط ، فقلدوها دون أن يعرفوا معناها .

وفى بغداد والموصل ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة كان يوجد بها مدارس لتعليم الرسم والتصوير الاسلامى . وكانت الصور فى المخطوطات المصورة عبارة عن تمثيل الطبيعة بتنوعاتها دون تجسيم المنظر أو مراعاة لقواعد المنظور أو التنظير أو الحجم وكان هذا الأسلوب سائدا فى العصرين المملوكى والعثمانى .

ولقد تأثرت الفنون الغربية ولا سيما فى القرن الـ ١٥ بالرسومات الاسلامية التى انتشرت فى البندقية . وهذه التأثيرات وفدت اليها مع ازدهار التجارة والمواصلات البحرية ما بين المدن الايطالية والشرق الاسلامى . وظهرت هناك لوحات تصور الحياة فى المشرق . وانتشرت هذه الصور كموجة حضارية تعبر عن الحضارة الاسلامية فى مصر والشام والأندلس والآستانة وفارس .

فلسفة جمالية

تتسم الفنون الاسلامية فى التصوير الابداعى بفلسفة جمالية تحقق الوحدة الفنية التى تثريها روح الاسلام وتعاليمه فى شتى صورها وابداعاتها . لهذا نجد هذه الفنون سواء فى الزخرفة أو التصوير لها لغة تعبيرية واحدة سواء فى النقوش الزخرفية أو الهندسية فيمكن لأى شخص التعرف على هذه الفنون بسهولة .. وتعتبر أطول الفنون عمرا لأنها مازالت سائدة فى العالم الاسلامى حتى اليوم . رغم أن الزخرفة مقيدة فى عمارة المساجد بحكم الشرع الا أنها أكثر تحررا فى العمائر الدنيوية والتى نراها فى القصور والخانات والحمامات والحانقهات، ومن كثرة تنوعاتها كانت الزخارف تخفى حقيقة المبنى نفسه ، كما أن استعمال الآجر (القرميد) فى الزخرفة يعتبر نمطا

اسلاميا فريدا فى الزخرفة البنائية . فجامع (تيليا كارى) بسمرقند من كثرة زخارفه الداخلية الموشاة بالذهب نجد الضوء يضفى عليها بعدا جماليا عميقا . لهذا اطلق عليه جامع الذهب . وهناك يوجد مسجد (خاتم) شيدت واجهته بالطوب المزجج والملون بأصباغ أملاح الكروم لتأخذ زخارفه الطابع الاسلامى .. فعلى الواجهة الموزاييك والرخام المنحوت والخشب المضغوط والقبة المحززة والمسلوبة بلونها الأزرق مما يضفى على هذا المسجد بعدا جماليا رائعا . وهذا الأسلوب فى الزخرفة كان متبعا فى كل مساجد المشرق الاسلامى .

والفنون الاسلامية عرفت بالأرابيسك وهو فن الرقش (الزخرفة) الاسلامى الذى ظهر فى رسم المصحف وتزيينه وفى عمل المشربيات . والتوريق أحد فنون الزخرفة الاسلامية وهو فن الرسم على الحوائط واشتهر فى الفنون الاسلامية .

والقرآن لم يحرم الصور والتصوير لكن الرسول (صلى الله عليه وسلم) نهانا عنها . وهذا النهى عن تصوير الانسان والحيوان جعله لا يدخل فى تزيين المصحف او الأبنية الدينية مراعاة لحرماتها وهذا ما جعل المسلمين ينصرفون عن الصور الى اتقان الزخرفة المتداخلة بين الأغصان والأوراق النباتية . وهذا التوريق المتداخل لا يوجد أصلا فى الطبيعة .. ولهذا ــ أيضا ــ برز الخط العربى كتصوير فى القرآن وتدوينه عندما انتشر الاسلام فى مشارق الأرض ومغاربها .

قبة الصخرة والعصر الأموى

تعتبر قبة الصخرة التى بنيت فى العصر الأموى من أبدع الآثار الاسلامية . وهى أقدم أثر اسلامى عندما شيدها

عبد الملك بن مروان عام ٦٩١ م/٧٢ هـ . وجعلها ساحة كبيرة أطلق عليها الحرم الشريف وكان قد بناها لغرض سياسى عندما كانت مكة والمدينة تخضع للخلافة الزبيرية وانشق عبد الله بن الزبير عن الدولة الأموية وجعل عبد الملك بن مروان من قبة الصخرة مزارا وحجا كالكعبة . لهذا جعل حولها ساحة كبيرة لتستوعب أهل الشام حولها . كما هو الحال عند بيت الله الحرام والمسجد الاقصى ثالث الحرمين الشريفين . وذلك حتى لا يتصل أهل الشام بابن الزبير فى مكة وينقلبوا على الحكم الأموى بدمشق .

والقبة شيدت مثمنة الشكل وكانت مصنوعة من الخشب المغطى بألواح الرصاص وفوقها الواح من النحاس البراق . ولها رقبة اسطوانية بها ١٦ نافذة زجاجها ملون وبداخلها كتابات قرآنية بالخط الكوفى فوق أرضية زرقاء مع وجود زخارف من الفروع النباتية حول هذه الآيات وتخرج منها الأوراق فى شكل لولبى (حلزونى) مع رسومات لأوراق الأشجار والفواكه . والقبة مبطنة من الداخل بالفسيفساء الملون الجميل .. وتعتبر قبة الصخرة من روائع الآثار الاسلامية ومن أكثرها تنسيقا وابداعا معماريا ولاسيما وأن نقوشها فريدة وزخارفها لها رونقها البديع . وتتسم عمارتها بالاتقان المبدع والتناسب والتناسق المتقن . وفى وسطها الصخرة المشرفة التى عرج من فوقها الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى الملأ الأعلى .

لهذا نجد أن أول من أدخل الزخارف الاسلامية هم الأمويون الذين استوحوا هذا الفن من الطرز الشامية التى كانت سائدة فى عصرهم؟؟

روائع الخط العـــربى

من الابداع الفنى ما نراه فى الأعمال الفنية فى أشـــــكال وخطوط الخط العربى والمنمـــات وصـــور الديوانات فى كتب كليلة ودمنة ومقامات الحريرى والشـــهنامة الفردوسى وكتاب المخلوقات للطوسى ورســـائل اخوان الصـــفا . ويتجلى التصوير الزخرفى فى تزيين بعض ســـور القرآن الكريم ولاسيما الزخارف التى تفصل السور والهوامش والمقاطع وخاتمة القرآن .

ومن الفنون التى أبدع فيها المســلمون روائع الخط العربى على المســاجد والمنشئات الاســلامية وتزيين الآيات القرآنية حتى اصـــبحت لوحات الخط العربى من حســـن جمالها تعرض فى المتاحف والمعارض العالمية . لأن الخط العربى له قواعد وأصـــول فنية فى كتابته . فيه تشـــكيلات متعددة منها خط النسخ والثلث والرقعة والكوفى والقيروانى والديوانى والبيرونى . وقد اظهر الخطاطون فيه براعة فى الرســـومات والزخرفة . حتى الكتب والمصاحف كان الوراقون يزخرفون جلداتها بزخارف بديعة .

واتجهت فنون الخط العربى الى التجويد والتنويع والتطويع والتنافس بين الخطاطين . لأن اللغة العربية هى اللغة الوحيدة فى العالم التى تنوعت أشـــكال حروفها وخطوطها وظهرت لهذا عدة مدارس خطوطية منها الفارســـية والمغـــربية والمصـــرية والعراقية والتركية (قبل ادخـــال الحروف اللاتينية على اللغة التركية) . والخط العربى بتنويعاته فوق القباب وجدران المساجد لـــه وظيفة رمزيـــة حيث برع المخططون فى اظهـــار قدراتهم بهذه النقوش الابداعية . لأن فى الكتابة العربية قواعد لحروفها سواء من الناحية الطولية أو العرضـــية أو حتى التناســـقية والتناغمية

وكل خطاط يلتزم بها . لأن اللغة العربية تعتبر لغة منقوشة لطبيعة حروفها التى لها أشكالها المختلفة سواء أكانت مستقيمة أو منحنية أو أفقية أو مائلة أو رأسية . ومما يضفى لها جمالا الزخارف النباتية حولها .

الحفر والنحت

كان الأمويون يحفرون الحجارة على واجهات قصورهم كقصر عمرة وقصر الحيرى الغربى وكان المبنى يقسم الى شرائط على شكل مثلثات بها رسوم مراوح وكيزان الضوء والنجوم الصغيرة وأشكال زهرة اللوتس مع تفريغات لأغصان أشجار العنب وعناقيده . وكان الفنانون الأمويون يزينون أيضا .. واجهات القصور بالفسيفساء الملونة .

كما ظهر الحفر على الخشب أيام الأمويين . وكان يتميز بالحفر العميق وتصوير الطبيعة بحفر العناصر الزخرفية بعناقيد العنب وأوراقه المدلاة مع فروع ملتوية . وقد تكون الأوراق مفصصة أو مركبة . وكلها فنون كانت سائدة وقتها فى بلاد الشام . ويوجد بالمتحف الاسلامى بالقاهرة نماذج من هذا الحفر ، ويعتبر المسجد الأقصى نموذجا معاصرا لفن الحفر على الخشب ابان العصر الأموى . وهذا ما نراه فى أعمدته الخشبية وأطراف العوارض الحاملة لسقف البلاطة الوسطى للمسجد بأشكالها الهندسية المنتظمة فى شكل مثلثات أو مسدسات أو دوائر وأشكال بيضاوية وحولها الزخارف النباتية بتوريقاتها الحلزونية . وأيام الفاطميين انتشر فن النقش على الخشب حيث صوروا حياتهم ومجالسهم على الواح موجودة بالمتحف الاسلامى بالقاهرة . واشتهر الشوام

والمصريون بالحفر على العاج بأشكاله الزخرفية البديعة والرقيقة مع الكتابة عليه . وكانوا يصنعون من العاج علب المجوهرات والمكاحل وأوانى العطور وكانت تنقش عليها الزهور والنباتات .

المحاريب

يعتبر المحراب فى معظم المساجد قطعة فنية رائعة بزخارفه الجميلة والمتناسقة ، والمحراب هو التجويف على حائط القبلة فى الجوامع والمساجد وقد يكون علامة على الحائط بلا تجويف . لارشاد المصلين باتجاه القبلة .

وكان المحراب الأول فى الاسلام ايام عصر الرسول فى الجانب الشمالى باتجاه بيت المقدس وكان عبارة عن علامة بلا تجويف . ثم انتقلت القبلة الى الحائط الجنوبى من المسجد باتجاه الكعبة .

وغالبا ما تزين المحاريب بالزخارف الهندسية المتناسقة مع تدوين الآيات القرآنية ولفظ الجلالة عليها .

ومن الخشب .. صنعت المحاريب الخشبية المتنقلة وكان موجود منها بجوامع الأزهر والسيدة عائشة والسيدة رقية . وهى موجودة حاليا بالمتحف الاسلامى بالقاهرة .. وصنعت هذه المحاريب الخشبية بأسلوب الحفر بالحشو المجمع ومعظمها عليها أطباق نجمية أو سداسية الشكل مع وجود زخارف نباتية وخطوط متوازية .

صـــناعة البللور

عرف المصـــريون أيام حكم المماليك صـــناعة البللور الذى كان يصـــنع من الصخر البللورى . والبللور كان يجلب من المغرب وجبال البحر الأحمر لصـــنع الاكواب والاباريق بألوان مذهبة . وعليه كانت ترسم رسومات نباتية وحيوانية ويكتب عليه بزخارف كتابية .

وظهر فن المشـــكايات (القناديل) وهو فن يتميز بالزخرفة على الزجاج بالمينا أو الذهب ويكون الزجاج على هيئة وعاء له جســم منبعج ورقبة فوقه على شـــكل هرمى مقلوب . والمشكاة كان لها قاعدة زجاجية .. وحاليا .. يوجد نماذج من هذه المشـكايات عليها الآيات القرآنية والزخارف الاســـلامية المموهة على الزجاج بالذهب وغالبا ما تكون هذه الآيات من ســـورة النور . وأيام الفاطميين ازدهرت صـــناعة الزجاج بمصـــر وكانوا يشـــجعون صناعته والتفنن فى زخرفته .

الســـجاد

عرف الفن الاســـلامى صـــناعة وزخرفة الســـجاد بأشكاله ورســـوماته المميزة مع تحاشى رســـم صور الانسان والحيوان . واشـــتهرت الطنافس (الأبســـطة المخملية) والمطرزات الاسلامية فى القرون الـ ١٦ حتى ١٩ . وكانت الســـجادة تمتاز بالوحدة الزخرفية على مســـاحتها . وعنى العصـــر المملوكى بالرســـومات الهندســـية . كما عنى العصـــر العثمانى برســـوم الزهرة الحرة والمســـاحات اللونية ولاسيما باللونين الأحمر والأزرق . وامتازت السجاجيد العجمى بالزخارف النباتية والحيوانية . وبرع المصريون والأعاجم فى صـــنع الطنافس وكانت تعتبر تحفا فنيـــة متنوعة

الألوان والزخارف والتصميمات . وكانت تصور تصويرا دقيقا وتستعمل كستائر للنوافذ والشرفات أو كبسط على الأرض أو فوق الأرائك والعروش . وأيام العباسيين قلدوا الفرس فى رسم الدوائر المنعزلة التى تمثل موضوعات زخرفية كرسم الحيوانين المتقابلين أو المتدابرين وبينهما شجرة الخلد .

المنسوجات المطرزة

كان يوجد بمصر دور الطراز وهى مؤسسات كانت تابعة للدولة ولاسيما فى عصر المماليك وتقوم بصنع الملابس من التيل والمزخرف بخيوط الذهب والقصب .. وكانت تصنع بها الشيلان والأحزمة والعمائم المزركشة ايام السلاطين المماليك . وكانت ملابس الأمراء وشيوخ الأزهر توزع عليهم كخلع سلطانية وكانت دور الطراز فى مدينة دبيق وشطا وتنيس بمصر .

وكانت صناعة النسيج من اضخم الصناعات واروجها فى العالم الاسلامى . وكانت أوروبا تتهافت على الأقمشة والمنسوجات الشرقية التى كان يرتديها الرهبان والقساوسة هناك . لأن الطراز الاسلامى كان شائعا . وكانت هذه الملابس تصدر الى أوروبا وعليها الآيات والزخارف والكتابات العربية . وكانت مصر مشهورة بالقباطى التى كانوا يصنعونها من الكتان والياف سعف النخيل والحلفا . وكان النسيج يوضع عليه فى دار الطراز شارة السلطنة والبسملة وسنة الصنع واسم المصنع .

وقد برع المصريون فى الزخرفة النسيجية بنسج الزخارف مع القماش وكانوا يكثرون فيها الأهلة والطيور والخيل والطواويس التى تعطى جمالا زخرفيا بألوانها المتداخلة . وكانت مصر تصنع

كسوة الكعبة من القباطى (قماش مصرى) المصنوعة من الديباج الأبيض الخراسانى ويوم النحر كانت تكسى بالديباج الأحمر الخرسانى . وكان على القماش دارات عليها الحمد لله والتكبيرات والتسابيح . وهذه الكتابات كانت تزخرف الكسوة فى شكل دوائر . لهذا قلدت أوروبا صناعة الأوبيسون والجوبلان من فن تزيين قماش القباطى لدى المصريين .

وفى العصر العثمانى ازدهرت صناعة النسيج واصبحت المنسوجات التركية تتميز بالرسوم النباتية وزهور القرنفل والسوسن والورد . وادخل الأتراك فن التطريز فى رسم الستائر لتكون زخرفتها فى شكل صور وموضوعات مصورة ومتكاملة . وكانوا يطرزون القماش بخيوط الحرير والمعادن .

وكانت الكتب مصورة بأشكال وصور صغيرة ترسم على هوامش المخطوطات تصور كلوحة متكاملة فى الكتب التراثية كالشهنامات (الملاحم الفارسية) أو كتب الشعر الملحمى ودواوين الشعر العربى والمقامات كمقامات الحريرى وكتاب كليلة ودمنة . وكانت هذه النمنمات تصور المعارك البحرية والحربية والحياة فى بلاطات السلاطين والملوك .

وكان يطلق على هذا الفن التصوير الذى كان غنيا بالزخارف واغصان الزهور والحيوانات . وكانت هذه المنمنمات ترسم على السجاد والخزف كزخارف محلاة ودقيقة . واشتهر الفرس والأتراك بهذا الفن الرفيع .

صناعة ((التكفيت))

اشتهر المصريون بالكفت ((آتكفيت) ، والتكفيت هو الرسم والحفر على الأوانى المعدنية وزخرفتها بأسلاك من

الذهب أو الفضـــة أو أى معدن آخر ، وكانت هذه الأوانى المعدنية تزخرف برســـومات وزخارف نباتية أو حيوانية . وأيام عصـــر المماليك اشـــتهرت مصـــر بالأكواب والأباريق والأوانى المكفتـــة كالنحاس المكفت بالذهب أو الفضـــة . والفضـــة المكفتة بالذهب. وكان أول ظهور للمعادن المكفتة أيام الســـلاجقة ثم انتقلت هذه الصـــناعة من الموصـــل بالعراق الى مصـــر . وكانت تصدر مصر المكاثحل والأكواب والأباريق والصـــحون المكفتة الى أوروبا .

صـــناعة الخـــزف

كان المســـلمون يقبلون على طلى الأوانى الخزفية تجنبا لاستعمال أوانى الذهب أو الفضة فى الشراب أو الطعام ، وكان الفنان المسلم يحفر على الخزف أشكالا بارزة وتعبيرية . لهذا نجد أن الخزف الاســـلامى تنوعت صناعته وزخارفه وتزيينه وطلاؤه . فكان الفخار يزخرف قبل احراقه بأشـــكال هندســـية أو حيوانية أو نباتية بديعة . واســـتعمل صناع الفخار طريقة التحزيز (الحز) للأوانى فى بدن الاناء . وكانت صـــناعة الخزف (البورسلين) من الطين المضـــاف اليه الرمل والكاولين وكانت الرســـــومات والزخارف ترســـم على البطانة قبل وضـــع الاناء فى الفرن وكانت هذه الأوانى يكتب عليها خطوط عربية جميلة وآيات قرآنية .

والقيشـــانى هو بلاطات خزفية تستعمل فى تزيين الجدران وكان يصـــنع فى بلدة كيشـــان (قيشـــان) والبلاطة مزججه لامعة وملونه بالأبيض أو الألوان . وقد تزخرف ويرســـم عليهـا الحيوانات أو النباتات ثم ازدهرت صـــناعة القيشـــانى فى بلاد الأندلس وفى بروســـة (بورصـــة) بتركيا أيام العثمانيين .. واصبح الطراز العثمانى والأندلسى ســـائدا حتى اليوم ، ومازال يزين قصور الحمراء واشبيلية وغيرها من المدن الاندلسية .

هذا عرض للفنون الاسلامية وصناعاتها التى تأثرت بهذه الفنون . وازدهرت فى ظلال الاسلام ونقلها الغرب وحاكاها . والزخارف الاسلامية فى المؤسسات الدينية كالجوامع لم تكن تؤدى وظائف دينية معينة كما فى الزخارف المسيحية أو اليهودية أو البوذية أو الوثنية . فالآيات القرآنية على الجدران وحول المآذن والقباب هى قبسات نورانية وايمانية تدعو الجماعة الاسلامية الى التقوى .

وأخيرا .. لقد كانت الحاجة التى شعر بها المسلمون لاظهار الوجود الاسلامى تتمثل فى هذه الفنون ولا تتعدى أسلمتها بما لا يتعارض مع الشريعة ، وتتوافق مع المزاج الاسلامى . فقبل المسلمون ما قبلوه ورفضوا ما رفضوه .. فأوجدوا طرزا وانماطا اسلامية قد صهرت فى اطار اسلامى بالغ التنوع بما يؤصله وجعله أكثر استمرارية .

وهذا ما نراه فى العمارة الاسلامية بالقاهرة والفسطاط فى الجوامع والأوابد التراثية الاسلامية والأسبلة والخانقاهات وهذا ما جعل مصر العتيقة وقاهرة المعز مدينة متحفية الآن .

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
الأعيـاد والاحتفالات	١٣١
طلعـة المحمـل	١٤٣
قاهرة البكوات	١٥١
الى أيـن	١٥٩
الملاحـق	١٦٣

صدر من هذه السلسلة :

١	ـ الكومبيوتر	تأليف د٠ عبد اللطيف أبو السعود
٢	ـ النشرة الجويـة	تاليف د٠ محمد جمال الدين الفندى
٣	ـ القمـــامة	تاليف د٠ مختـــار الحلوجي
٤	ـ الطاقة الشمسية	تاليف د٠ ابراهيم صــقر
٥	ـ العلم والتكنولوجيا	تاليف د٠ محمد كامل محمود
٦	ـ لعنــة التــلوث	تاليف م٠ ســعد شــعبان
٧	ـ العلاج بالنباتات الطبية	تاليف د٠ جميــلة واصــل
٨	ـ الكيمياء والطاقة البديلة	تاليف د٠ محمد نبهان سويلم
٩	ـ النهــــر	تاليف د٠ محمد فتحى عوض الله
١٠	ـ من الكمبيوتــــر الى السوبر كمبيوتر	تأليف د٠ عبد اللطيف أبو السعود
١١	ـ قصة الفلك والتنجيم	تاليف د٠ محمد جمال الدين الفندى
١٢	ـ تكنولوجيــا الليزر	تاليف د٠ عصام الدين خليل حسن
١٣	ـ الهـــرمون	تاليف د٠ سينوت حليم دوس
١٤	ـ عودة مكوك الفضـــاء	تاليف م٠ ســعد شــعبان
١٥	ـ معـــالم الطــريق	تاليف م٠ سعد الدين الحنفى ابراهيم
١٦	ـ قصص من الخيال العلمى	تاليف د٠ رؤوف وصــفى
١٧	ـ برامج للكمبيوتر بلغــة البيزيــك	تاليف : د٠ عبد اللطيف أبو السعود
١٨	ـ الرمال بيضاء وسوداء وموسيقية	تاليف د٠ محمد فتحى عوض الله
١٩	ـ القــوارب للهــواة	تاليف شفيق مترى
٢٠	ـ الثقافة العلمية للجماهير	تاليف : جرجس حلمى عازر

٢١ ـ أشعة الليزر والحياة المعاصرة	تأليف د. محمد زكي عويس
٢٢ ـ القطاع الخاص وزيادة الانتاج فى المرحلة القادمة	تأليف د. سعد الدين الحنفى
٢٣ ـ المريخ الكوكب الأحمر	تأليف د. منير أحمد محمود حمدى
٢٤ ـ قصة الأوزون	تأليف د. زين العابدين متولى
٢٥ ـ قصص من الخيال العلمى ج ٢	تأليف رؤوف وصفى
٢٦ ـ الذرة	تأليف م. ابراهيم على العيسوى
٢٧ ـ قصة الرياضة	تأليف على بركه
٢٨ ـ الملوثات العضوية	تأليف محمد كامل محمود
٢٩ ـ ألوان من الطاقة	تأليف عبد اللطيف أبو السعود
٣٠ ـ صور من الكون	تأليف زين العابدين متولى
٣١ ـ الحاسب الالكترونى	تأليف محمد نبهان سويلم
٣٢ ـ النيل	تأليف محمد جمال الدين الفندى
٣٣ ـ الحرب الكيماوية ج ١	تأليف دكتور أحمد مدحت اسلام د. عبد الفتاح محسن بدوى د. محمد عبد الرازق الزرقا
٣٤ ـ الحرب الكيماوية ج ٢	تأليف دكتور أحمد مدحت اسلام د. عبد الفتاح محسن بدوى د. محمد عبد الرازق الزرقا
٣٥ ـ البصر والبصيرة	تأليف طلعت حلمى عازر
٣٦ ـ السلامة فى تداول الكيماويات	تأليف د. سمير رجب سليم
٣٧ ـ التلوث الهوائى والبيئة ج ١	د. طلعت الأعوج
٣٨ ـ التلوث الهوائى والبيئة ج ٢	د. طلعت الأعوج

٣٩	ـ التلوث المائى ج ١	د· طلعت الأعـوج
٤٠	ـ التلوث المائى ج٢	د· طلعت الأعـوج
٤١	ـ نعيش لنأكل أم نأكل لنعيش	د· محمد ممتاز الجندى
٤٢	ـ أنت والدواء ط ١ · ١٩٩٤ ، ط ٢ ، ١٩٩٧	صيدلى/ أحمد محمد عوف
٤٣	ـ اطلالة على الكون	د· زين العابدين متولى
٤٤	ـ من العطاء العلمي للاسلام	د· محمد جمال الدين الفندى
٤٥	ـ مسائل بيئية	تأليف رجب سعد السيد
٤٦	ـ البث الاذاعى والتليفزيونى المباشر ج ١	جلال عبد الفتاح
٤٧	ـ البث الاذاعى والتليفزيونى المباشر ج ٢	جلال عبد الفتاح
٤٨	ـ صفحات مضيئة من تاريخ مصر ج ١	تأليف محمود الجزار
٤٩	ـ صفحات مضيئة من تاريخ مصر ج ٢	تأليف محمود الجزار
٥٠	ـ جيولوجيا المحاجر	جيولوجى/ نور الدين زكى محمد
٥١	ـ الاستشعار عن بعد ج ١	د· سراج الدين محمد
٥٢	ـ الاستشعار عن بعد ج ٢	د· سراج الدين محمد
٥٣	ـ الردع النووى الاسرائيلى	د· ممدوح حامد عطية
٥٤	ـ البترول والحضارة	د· توفيق محمد قاسم
٥٥	ـ حضارات أخرى فى الكون	جلال عبد الفتاح
٥٦	ـ دليلك الى التفوق فى الثانوية	سامية فخرى
٥٧	ـ التلوث مشكلة اليوم والغد	د· توفيق محمد قاسم

٥٨	ـ انهيـار المبـانى ط ١ ١٩٩٥ ، ط ٢ ، ١٩٩٧	م· جرجس حلمى عـازر
٥٩	ـ الوقت والتوقيت ج ١	عبد السميع سالم الهوارى
٦٠	ـ الوقت والتوقيت ج ٢	عبد السميع سالم الهوارى
٦١	ـ الجيولوجيا والكائنـات الحيـة	د· دولت عبد الرحيم
٦٢	ـ أسلحة الدمار الشـامل ج ١	د· جمال الدين محمد موسى
٦٣	ـ أسلحة الدمار الشـامل ج ٢	د· جمال الدين محمد موسى
٦٤	ـ النقل الجـوى فى مصر ج ١	د· سراج الدين محمـد
٦٥	ـ النقل الجـوى فى مصر ج ٢	د· سراج الدين محمـد
٦٦	ـ قراءة فى مستقبل العالم	تأليف : كـلايف رايش
٦٧	ـ غدا القرن ٢١٠٠٠ ، ط ١ ، ١٩٩٥ ، ط ٢ ، ١٩٩٧	رجب سـعد السـيد
٦٨	ـ الشـتاء النووى ج ١	د· جمال الدين محمد موسى
٦٩	ـ الشـتاء النووى ج ٢	د· جمال الدين محمد موسى
٧٠	ـ تاريخ الفلك عند العرب	د· محمـد امام ابراهيم
٧١	ـ رحلة فى الكون والحياة ج ١ ط ١ ، ١٩٩٦ ، ط ٢ ، ١٩٩٨	صيدلى/ أحمد محمد عوف
٧٢	ـ رحلة فى الكون والحياة ج ٢ ، ط ١ ، ١٩٩٦ ، ط ٢ ، ١٩٩٨	صيدلى/ أحمد محمد عوف
٧٣	ـ الصحـة المهنيـة ج ١	د· سـمير رجب سـليم
٧٤	ـ الصحـة المهنيـة ج ٢	د· سـمير رجب سـليم

٧٥	ـ عـالم الحشيش ج ١	د. جمال الدين محمد موسى
٧٦	ـ عـالم الحشيش ج ٢	د. جمال الدين محمد موسى
٧٧	ـ أهم الأحداث والاكتشافات العلمية لعام ١٩٩٥ م	محمـد فتحـى
٧٨	ـ النقل الجـوى وتلوث البيئة فى مدينة القاهرة ج ١	د. سراج الدين محمـد
٧٩	ـ النقل الجـوى وتلوث البيئة فى مدينة القاهرة ج ٢	د. سراج الدين محمـد
٨٠	ـ رحلات علميـة معاصرة	صيدلى/ أحمد محمد عوف
٨١	ـ الكمبيوتر خبيرا ومفكرا	محمـد فتحـى
٨٢	ـ العلمـاء ثائـرون	د. جمال الدين محمد موسى
٨٣	ـ الحرب النووية القادمة	د. جمال الدين محمد موسى
٨٤	ـ العلم ومستقبل الانسان	د. جمال الدين محمد موسى
٨٥	ـ الثورة الخضراء .. أمل مصر	م. جرجس حلمى عـازر
٨٦	ـ عـالم الأفـلاك	د. امام ابراهيم أحمد
٨٧	ـ صناع الحضارة العلمية فى الاسلام ج ١	د. أحمد محمـد عوف
٨٨	ـ صناع الحضارة العلمية فى الاسلام ج ٢	د. أحمد محمـد عوف
٨٩	ـ عبقرية الحضارة المصرية القديمـة	د. أحمد محمـد عوف
٩٠	ـ الفـلك عنـد العـرب والمسلمين ج ١	د. زين العـابدين متولى
٩١	ـ الفـلك عنـد العـرب والمسلمين ج ٢	د. زين العـابدين متولى

٩٢	ـ أهم الأحداث والاكتشافات العلمية لعام ١٩٩٦	محمد فتحى
٩٣	ـ أسرار علم الجينات	م· طبى عبد الباسط الجمل
٩٤	ـ الانترنت	د· عبد اللطيف أبو السعود
٩٥	ـ موسوعة الأعشاب الطبية	صيدلى/ أحمد محمد عوف
٩٦	ـ البلاستيك وتأثيراته البيئية والصحية	د· أحمد مجدى حسين مطاوع
٩٧	ـ (موسوعة أسئلة وأجوبة (من كنوز المعرفة ـ الجزء الأول) أسرار الأرض	ترجمة : هاشم أحمد محمد
٩٨	ـ القلب البديل (الخرافة والأسطورة)	محمد فتحى
٩٩	ـ (موسوعة أسئلة واجوبة من كنوز المعرفة ـ الجزء الثانى) أسرار جسم الانسان	ترجمة : هاشم أحمد محمد
١٠٠	ـ سيمفونية العلم	د· عفاف على ندا
١٠١	ـ سكان الكواكب	د· امام ابراهيم أحمد
١٠٢	ـ السمنة وعلاجها ج ١	د· فتحي سيد نصر
١٠٣	ـ السمنة وعلاجها ج ٢	د· فتحي سيد نصر
١٠٤	ـ التلوث البيئى والهندسة الوراثية	د· على محمد على عبد الله
١٠٥	ـ التلوث البيئى وسبل مواجهته	د· محمد نبهان سويلم
١٠٦	ـ (موسوعة أسئلة واجوبة (من كنوز المعرفة ـ الجزء الثالث) اسرار جسم الحيوان	ترجمة : هاشم أحمد محمد
١٠٧	ـ حكاية الاستنساخ	م· عبد الباسط الجمل
١٠٨	ـ التلوث الكهرومغناطيسى	عبد المقصود حجو

١٠٩ ـ تغيير المنـاخ ومستقبـل الأرض — د٠ محمد أحمد الشهاوى

١١٠ ـ الانسان والطاقة ج ١ — زكريا أحمـد البرادعى

١١١ ـ الانسان والطاقة ج ٢ — زكريا أحمـد البرادعى

١١٢ ـ أهم الأحداث والاكتشافات العلمية (٣) ج ١ — محمـد فتحـى

١١٣ ـ أهم الأحداث والاكتشافات العلمية (٣) ج ٢ — محمـد فتحـى

١١٤ ـ منظومـة الحيـاة — صيدلى/ أحمد محمد عوف

١١٥ ـ صـيد البحر وطعامه — رجب سـعد السـيد

١١٦ ـ مواقـع النجـوم ج ١ — مهندس/ سـعد شـعبان

١١٧ ـ مواقـع النجـوم ج ٢ — مهندس/ سـعد شـعبان

١١٨ ـ (موسوعة أسئلة وأجوبة من كنوز المعرفة ـ الجزء الرابع) عـالم الفنـون — ترجمة : هاشم أحمد محمد

١١٩ ـ (موسوعة أسئلة وأجوبة من كنوز المعرفة ـ الجزء الخامس) مغـامرات مدهشـة — ترجمة : هاشم أحمد محمد

١٢٠ ـ سر النهـوض والتقـدم (لمـاذا لا يبدع المصريون) — محمـد فتحـى

١٢١ ـ النقل الجوى وتكنولوجيا المعلومات — د٠ سراج الدين محمـد

١٢٢ ـ المريخ فى انتظارنـا — مهندس/سـعد شـعبان

١٢٣ ـ مسـيرة العـلم — د٠ عفـاف على نـدا

١٢٤ ـ حـرائق المـواد البلاستيكية واخطارها — د٠ أحمد مجدى مطاوع

١٢٥ ـ البترول مخاطره الصحية وتلوث البيئة — طبيب/ صـلاح عـدس

١٢٦ ـ طريقك للاختراع	مهندسة/ ليلى عبد المنعم
١٢٧ ـ أسرار العطور	كيميائى/ عبد الوهاب القاضى
١٢٨ ـ الشمس النجم الأم	د. منير أحمد محمود حمدى
١٢٩ ـ الطاقة المتجددة أمل مصر	د. عبد المقصود حجو
١٣٠ ـ مرض السكر (أوهام وحقائق)	صيدلى/ أحمد محمد عوف
١٣١ ـ الذكاء الصناعى	م. محمد نبهان سويلم
١٣٢ ـ التحكم فى التكوين الوراثى للانسان	د. محمد فتحى
١٣٣ ـ تلوث البيئة وثقب الأوزون	مهندس/ سعد شعبان
١٣٤ ـ المواد اللاصقة والطلائية	د. أحمد مجدى مطاوع
١٣٥ ـ الكمبيوتر والثقافة والفنون	د. محمد فتحى
١٣٦ ـ افلا تبصرون	د. أحمد محمد عوف
١٣٧ ـ ثغرات فى ثوب العلم	منى خليل
١٣٨ ـ رحلة فى الكون والحياة ج ٣	د. أحمد محمد عوف
١٣٩ ـ البحار .. كنوز القرن ٢١	د. عبد المقصود حجو
١٤٠ ـ العلاج بالليزر	د. فتحى نصر
١٤١ ـ مستكشفوا الذرة	ترجمة/ د. محمد صالح
١٤٢ ـ بيئة خالية من التلوث	م/ ليلى عبد المنعم
١٤٣ ـ النقل .. عصب الحضارة	د . عبد المقصود حجو
١٤٤ ـ مدينة الفسطاط وعبقرية	د . أحمد محمد عوف

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠٣/٤٣٤٦

I.S.B.N. 977 — 01 8910 — 1